جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

مجلة الدراية
https://drya.journals.ekb.eg
drya.journal@gmail.com

مجلة الدراية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية

بيان الدلالة في حديث الإنذار من على جبل الصفا على صحة البعثة والرسالة

دكتور / حذيفة محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بيان الدلالة فى حديث الإنذار من على جبل الصفا على صحة البعثة والرسالة

حذيفة محمد سيد أحمد المسير

قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الالكتروني/ Mosaiar20100@gmail.com

الملخص:

يقدم هذا البحث تحليلا شاملا لموقف من مواقف الدعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم لبيان صحة الدليل، ووضوح الحجة. هذا الموقف يتمثل فى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد جبل الصفا بمكة لما أمر بالجهر بالدعوة ونادى فى الناس ليجمعهم، فلما حضروا قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟، فقالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا، فقال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. ومشكلة البحث تتمثل فى بيان صحة قياس الأولى الذى استخدمه النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف، حيث لا يظهر للعامة بأول الأمر وجه هذا القياس، الذى يتطلب أن يكون التصديق بالخبر الأول أعظم مشقة من الثانى. وقد تم هذا البحث فى مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة. أما المطلب الأول فى البحث فكان لذكر روايات الموقف النبوى، ثم كان الثانى لببيان وجه الحاجة لتحليل الموقف. أما المطلب الثالث فهو لتحليل الخبر الأول "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى"، وبين البحث أن هذا الخبر قد يواجه على الأقل باثنى عشر وجها تعارض التصديق بهذا الخبر، لكن الواقع أن كل تلك الوجوه لم تكن لتعارض خبر الرسول صلى الله عليه وسلم الواضح أمامهم. وأما المطلب الرابع فكان لتحليل الخبر الثانى "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، وظهر أن هذا الخبر لا شىء يمكن أن يعارضه فى أذهان قريش، بل هو جاء متوافقا مع عقائدهم، وأفكارهم، وأمورهم الاجتماعية، كما أنه لا شىء فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم يمكن أن تكون سببا فى رفض هذا الخبر. ثم جاء المطلب الخامس للموازنة بين الخبرين لبيان أن تصديق قريش بالخبر الثانى كان لازما لهم بعد أن صدقوا بالخبر الأول، لأن قياس الأولى يحتم ذلك. أما الخاتمة فهى لبيان ما أراد البحث توجيه أنظار الباحثين له، وهو تناول المواقف النبوية بمزيد من البحث والتحليل لاستنباط الدروس والعبر، وليمكن تحقيق الاقتداء الكامل بالرسول صلى الله عليه وسلم.

الكلمات المفتاحية: الصفا، خيلا، قياس الأولى، نذير، الجيش، قريش، مكة.

Indicative statement in alarm talk. From on Jebel Safa. Mission's validity and mission

Hozaifa Mohammad Said Ahmad Almosaiar
Department of Doctrine and Philosophy, Faculty of Theology in Cairo, Al-Azhar University, Egypt.
E-mail: Mosaiar20100@gmail.com

Abstract:
This research presents a comprehensive analysis of one of the positions of the call to Islam from the Messenger, may God bless him and grant him peace, to show the validity of the evidence and the clarity of the argument .This situation is represented in the fact that the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, ascended Mount Al-Safa in Makkah when he ordered the call to be made public and called to the people to gather them. Truthfully, he said: I am a warner to you in the hands of a severe punishment .The problem of the research is to show the validity of the first analogy that the Prophet, may God bless him and grant him peace, used in this situation, as it does not appear to the general public at first the face of this analogy, which requires that ratification of the first news be greater hardship than the second .This research has an introduction, five demands and a conclusion .As for the first requirement in the research, it was to mention the narrations of the prophetic situation, then the second was to clarify the need for analyzing the situation .As for the third requirement, it is for analyzing the first news, "Did you see that if I told you that horsemen behind this valley wanted to attack you, would you believe me?" And the research showed that this news may be confronted with at least twelve faces that oppose ratification of this news, but the reality is that all of these faces were not to oppose The news of the Messenger, may God bless him and grant him peace, is clear to them .As for the fourth requirement, it was to analyze the second news, "I am a warner to you in the hands of a severe punishment." It appeared that this news could not be opposed by anything in the minds of the Quraysh. God bless him and grant him peace can be a reason for rejecting this news .Then came the fifth requirement for balancing between the two reports, to show that the Quraysh's belief in the second report was necessary for them after they believed in the first report, because the analogy of the first necessitates that .As for the conclusion, it is to clarify what the research wanted to direct the attention of the researchers to, which is to deal with the prophetic positions with more research and analysis in order to draw lessons and lessons, so that complete emulation of the Messenger, may God bless him and grant him peace, can be achieved.

Keywords: Al-Safa, horsemen, first analogy, Nazir, army, Quraish, Mecca.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الله تعالى بعث نبيه محمدا ﷺ للمكلفين بشيرا ونذيرا، وأمره أن يخرج الناس من ظلمات الضلال والكفر إلى أنوار الهدى والإيمان.

ومنذ بعثته ﷺ وهو يدعو إلى الله من لقيه من أمة دعوته، باذلا لهم النصح، حريصا على هدايتهم.

ولقد كان فى دعوته ﷺ محققا لمثل فعل نوح عليه السلام الذى ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ (نوح ٥-٩).

ولقد بلغ من شدة حرصه ﷺ على هداية قومه أن نزل القرآن الكريم ليوضح للناس من جهة مبلغ هذا الحرص والشفقة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ (التوبة ١٢٨)، ويأمر النبى من جهة أخرى بأن يخفف على نفسه من أثر إعراضهم عنه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾

(التوبة ١٢٩)، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ۝٣﴾ (الشعراء ٣)، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا۝٦﴾ (الكهف ٦).

ولقد تخير الرسول ﷺ من أساليب الدعوة والإقناع ما تعجب من سموها الدعاة، وعلم بها الأجيال، وأدهش بها العقول.

وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد وجبت لجميع الرسل الكرام – والرسول ﷺ أفضلهم وأعظمهم قدرا ومنزلة– الفطانة، وهى حدة العقل وذكاؤه، لإقامة الحجج، ودفع الشبه التى قد يثيرها المدعوون جهلا أو عنادا.

وفى هذا البحث أحاول التركيز مع موقف حدث من رسول الله ﷺ لما أمر بالجهر بالدعوة، حين صعد جبل الصفا ونادى فى الناس ليجمعهم، ثم كلمهم ليثبت دليل رسالته عليهم بما شهدوا به له من علو مقامه فى الصدق، وارتفاع ثقتهم فى خبره وكلامه، وسيأتى ذكر هذا الحديث بتمامه إن شاء الله تعالى.

والذى دفعنى لذلك هو البيان لما فى هذا الموقف من وجوه الدلالة على صدقه ﷺ فى دعوته، والقطع لشبه المغرضين فى حديثهم عن دعوة الإسلام، حتى لا يلبس أحدهم على الناس فيزعم أن كلام الرسول لم يكن برهانا صحيحا، وإنما هو من نوع الأدلة الخطابية التى لا تثبت أمام النقد والتمحيص، وكل هذا الكلام هراء لا لبس فى ذلك.

ولقد استخدمت من مناهج البحث ما ناسب هذه الدراسة وأحوالها، فاستخدمت المنهج التحليلى، والتاريخى، والنقدى، كل فى إطار مقتضيات البحث وبيان أهدافه.

ولقد جاء هذا البحث في مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة.

وجاءت المطالب على النحو الآتى:

المطلب الأول: ذكر روايات الحديث.

المطلب الثانى: بيان وجه الحاجة إلى تحليل الموقف.

المطلب الثالث : تحليل القضية الأولى "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم".

المطلب الرابع: تحليل القضية الثانية "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد".

المطلب الخامس: الموازنة فى الحكم بين القضيتين.

والله أسأل السداد والقبول والإخلاص، إنه نعم المولى ونعم المستعان والنصير.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾

(آل عمران ١٩٣-١٩٤).

المطلب الأول
ذكر روايات الحديث

روى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء ٢١٤)، صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى: يا بنى فهر، يا بنى عدى، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ (المسد ١-٢)"[١].

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أيضا قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقى؟، قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك، ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وقد تب، هكذا قرأها الأعمش يومئذ"[٢].

---

(١) صحيح البخارى، كتاب تفسير القرآن، باب "وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك"، حديث ٤٧٧٠، فتح البارى بشرح صحيح البخارى، ابن حجر العسقلانى، جـ ٨، ص ٣٩٧، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٢) صحيح البخارى، كتاب تفسير القرآن، باب ١ من سورة "تبت يدا أبى لهب"، حديث ٤٩٧١، المرجع السابق، جـ٨، ص ٦٨٠.

وفى صحيح مسلم روايات للحديث، منها ما رواه أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذى يهتف؟، قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟، قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قال: فقال أبو لهب: تبا لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟، ثم قام، فنزلت هذه السورة "تبت يدا أبى لهب وقد تب" كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة(١).

وقد ورد الحديث برواية ابن عباس رضي الله عنهما فى عدد من كتب الحديث والسير، فوردت عند البيهقى(٢)، والبغوى(٣)، والنسائى(٤)، والبزار(٥)، وغيرهم.

كما ورد الحديث برواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾، قام رسول الله ﷺ على الصفا، ووضع أصبعيه فى أذنيه، فرفع صوته، فقال: يا صباحاه، يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش،

---

(١) صحيح مسلم، باب فى قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين"، صحيح مسلم بشرح النووى، النووى، جـ ٣ن ص ٨٢-٨٣، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٢) السنن الكبرى للبيهقى، باب مبتدأ الفرض على النبى ×، ج/ ٩، ص ١٢، حديث ١٧٧٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٣) شرح السنة، البغوى، باب دعائه × المشركين، جـ ١٣ن ص ٣٢٧، حديث ٣٧٤٢، المكتب الإسلامى، دمشق و بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٤) السنن الكبرى، النسائى، باب قوله تعالى: "إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، جـ١٠، ص ٢٢٧، حديث ١١٣٦٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٥) مسند البزار المعروف بالبحر الزخار، أبو بكر البزار، مسند ابن عباس ^، جـ ١١، ص ٢٩١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.

قالوا: ما لك؟، فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أكنتم مصدقى؟، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فعم رسول الله ﷺ وخص، فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار،لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النارلا أملك لكم من الله شيئا، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار لا أغنى عنكم من الله شيئا.

فجعل يدعو بطون قريش بطنا بطنا، يا بنى فلان أنقذوا أنفسكم من النار، حتى انتهى إلى فاطمة فقال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا عباس بن عبد المطلب، سلونى من مالى ما شئتم، فإنى لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها، فقال أبو لهب عليه لعنة الله للنبى ﷺ: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ۝٢﴾ إلى آخرها"[١].

وقد ورد هذا الموقف أيضا فى كتب أخرى مثل كتاب أبى نعيم الأصبهانى فى "دلائل النبوة"[٢]، وكذا فى كتاب محمد الصالحى المعروف بـ"سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد"[٣]، وغيرها من الكتب.

---

(١) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، صهيب عبد الجبار، باب بدء الدعوة الجهرية، جـ ١٤، ص٢٧٣، وقال رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد بن حنبل، بدون بيانات

(٢)دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهانى، ص ١٧٧، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٣)سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى، عدة مواضع، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

المطلب الثانى

بيان وجه الحاجة إلى تحليل الموقف

من روايات هذا الموقف، وقد تقاربت فى ألفاظها، وأحداثها، يتبين أن النبى ﷺ لما أمر بالجهر بالدعوة، والصدع بها بين الناس، وذلك حين نزل قوله تعالى من سورة الشعراء ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء ٢١٤)، وتضيف بعض الروايات: ورهطك منهم المخلصين، وهذه الإضافة إما تفسيرية بيانية، وإما من المنسوخ تلاوته، وإما من القراءات الشاذة[١]، وعلى كل فهى لا تعتبر قرآنا حقيقة الآن.

والمتأمل فى السير يجد أن هذا الأمر بالجهر بالدعوة كان بعد البعثة بثلاث سنين، وكان من علامات بدايته نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر ٩٤).

حينئذ خرج النبى ﷺ فى صباح يوم حتى صعد على جبل الصفا، وهو بداية السعى للحاج والمعتمر، وهو قبالة الكعبة المشرفة، فنادى النبى ﷺ أولا بنداء الاستغاثة المعروف حينذاك: يا صباحاه، ورفع صوته بذلك وكرره، ثم أتبع النداء الأول بالنداء على بطون قريش بطنا بطنا، ليؤكد على عموم ندائه، وليستثير فى الجميع الإجابة له، حتى تسامع الناس وتساءلوا عن الصارخ فيهم، فلما تبينوا أنه محمد ﷺ أخذوا يتوافدون عليه، حتى إن من لم يستطع القدوم لشغل أو مرض أو غيره أرسل أحدا من عنده ليتعرف على الخبر، ويسمع الحديث.

(١) انظر مثلا صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ٣، ص ٨٢.

فلما اجتمعت قريش بسفح الجبل وأنصتوا لكلامه ﷺ، ساءلهم النبى ﷺ بهذا التساؤل الواضح: أرأيتم أو أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل، وفى بعض الروايات: خلف هذا الوادى، تريد أن تغير عليكم، أو تريد أن تصبحكم أو تمسيكم، أكنتم مصدقى؟.

وغرض هذا التساؤل الكشف أمام الجميع من الجميع عن موقفهم من خبره ﷺ، فإذا اجتمعوا على إجابة واحدة كان إجماعا لا يشذ عنهم فيه أحد.

وبالفعل جاءت الإجابات سريعة واحدة متفقة جماعية، فقالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، أو ما جربنا عليك كذبا، وهما إجابتان متقاربتان فى المعنى، وهى تشير إلى أن الجواب الواحد والواضح الحاسم هو اتفاقهم على تصديقه ﷺ فى خبره.

عندئذ جاء الإعلان الواضح: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

وعبر بالإنذار ليستثير انتباههم، ويوضح خطورة الموقف عندهم، ولأن الإنذار يستدعى البشارة بدون عكس، فإن من جاء لينذر من خالف بالعذاب الشديد علم منه البشارة لمن أطاع، لكن لا يلزم من العكس مثله، فلا يلزم من البشارة لمن أطاع الإنذار لمن عصى بالعذاب.

ولأن النبى ﷺ استنطقهم بصدقه قبل إخباره، فلم يستطع أحد أن يكذبه فى خبره أو يرده عليه، وغاية ما حدث أن عمه أبا لهب تعرض له بالسب والاستنكار لسبب الجمع، لا تكذيبا للخبر المذكور للجمع.

وهو شأن معروف لمن لزمته الحجة بما لا يريد التسليم به، فيقلب الأمر إلى تطاول وخصومة شخصية ليخرج من تبعة الإلزام.

ولما نظرت فى كتابات من تناول هذا الموقف من سيرة النبى ﷺ لم

أجد أحدا منهم أفرد هذا الموقف بدراسة، ولا أحدا استفاض فى تحليله.

وغاية ما تمت كتابته الكلام موجزا عن أن هذا يدل على مدى صدقه ﷺ عند قومه.

قال الحافظ ابن حجر: "أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبرعن الأمر الغائب"[1].

قال أبو نعيم الأصبهانى بعد ذكر هذا الموقف: "ولقد شهدت قريش له ﷺ واعترفت قبل مبعثه فى مواطن بما يقارب هذا الحديث ويوافقه"[2].

وقال صاحب كتاب "سبل الهدى والرشاد" بعد أن ذكر هذا الحديث: "من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفرة، ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبدا، وهذا الذى يعلل لنا ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحدا فواحدا، طوعا لا إكراها، أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعمر بن الخطاب، وذلك لأنهم ما كانوا يشكون فى أن محمدا صادق، ولكن فاجأهم بشىء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه، حتى إذا ذهب هول المفاجأة، وحكموا عقولهم، التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ﷺ فتولد عن ذلك إيمان"[3].

وقال رابع: ""لو أخبرتكم ..إلى آخره" فإن قلت: لم قدم النبى ﷺ ذلك قبل الإبلاغ؟، قلت: جعله توطئة له، وليعلم بذلك أنهم لا يتهمونه بالكذب،

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، ابن حجر العسقلانى، جـ ٨، ص ٣٩٨.

(٢) دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهانى، ص ١٧٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى.

وأن كفرهم مجرد جحود"[١].

ويقول خامس: "حيث استدل رسول الله ﷺ بحاله قبل نبوته من صدقه وعصمة الله عز وجل له من الكذب، استدل بذلك على صدقه فيما يخبرهم به بعد نبوته، فكانت منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه ﷺ بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة، وصدق رب العزة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام ٣٣)"[٢].

ثم يقول فى موضع آخر: "هكذا يعترف له قومه أجمعون بالصدق، وعدم عثورهم على ما يناقض هذا الخلق منه، وهم وإن لم يكونوا قد ناصبوه العداء آنذاك، إلا أن هذه الشهادة وغيرها ظلت قائمة لا ينازعوه فيها، ولم يسحبوها حينما جاهرهم بالدعوة وناصبوه العداء، وقد حرصوا بعد ذلك على صد الناس عن الإيمان كل الحرص، وبذلوا كل جهد، غير أنهم لم يقدروا أن ينالوا من صدقه وأمانته وعفافه"[٣].

وهكذا كان الكلام عند غيرهم قديما وحديثا فيما علمت، لكنى نظرت فرأيت -كما هو واضح للجميع- أن الموقف هو موقف إقامة للحجة على الناس فى مسألة النبوة، فلا بد من أن نتبين أن هذه الحجة موافقة للقواعد المعروفة عقلا وعلما لإنتاج الحجة دليلها، وصحة دلالة الدليل على صواب المدلول، ليصح بعد ذلك أن يقال إن النبى ﷺ أقام الحجة على الناس.

---

(١) بهجة المحافل وبغية الأماثل فى تلخيص المعجزات والسير والشمائل، يحيى العامرى، جـ ١، ص ٨٩، دار صادرن بيروت.

(٢) رد شبهات حول عصمة النبى × فى ضوء السنة التبوية الشريفة، د/عماد السيد الشربينى، ص ٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١١.

وليس فى صحة إقامته ﷺ الحجة على الناس فى هذا الموقف نزاع أو شك، لكن الأمر أن اختلاف العصر، وقلة البضاعة فى اللسان، وابتعاد الناس عن الوعى بحقائق الزمن وأحواله، مما يعمى على بعض الناظرين وجه الدلالة فى هذا الموقف.

ولكى يتبين لنا وجه ما يحتاج إلى بيان أقول: إن هذا الدليل المذكور فى هذا الموقف هو من باب قياس الأولى، وهوقياس يعتمد على أن التسليم بقضية يتبعه باللزوم التسليم بقضية أخرى لأن وجه الشبه أو الحكم لو تحقق فى الأولى لكان أولى أن يتحقق فى الثانية، ووجه اللزوم فى الأولوية يختلف باختلاف القضايا، فقد يكون لأن ما ثبت للعام من أحكام فهو يثبت للخاص من باب أولى، أو لأن ما لا يدركه الخاص من أحكام لقصوره عنها فلن يدركه العام من باب أولى، أو لأن علة الحكم أقوى فى الثانية عنها فى الأولى، فلو قيل إن هذا الشراب مسكر لعلة الإسكار لكان الخمر حراما لنفس العلة بل هو فيها أولى لوضوح العلة فيها أكثر من غيرها، وهكذا.

ووجه قياس الأولى فى الدليل الذى معنا هو أن النبى ﷺ لما أخذ على الناس تصديقهم له فى خبره بوجود الجيش الذى يوشك على الاعتداء عليهم ألزمهم بأن يصدقوه فى خبره بأنه رسول الله إليهم من باب أولى.

وهذا يعنى أن تصديق الناس بخبر الجيش أشق عليهم من تصديقهم بخبر الرسالة أو مساويا له، فإذا صدقوه فيما هو أشق، لزمهم التصديق فيما هو أقل منه مشقة.

وهذا يعنى بتوضيح آخر أن تصديق الناس بخبر الجيش سيكون أعظم فى الدرجة والمعاندة من التصديق بخبر الرسالة أو مساويا له، لأنه إذا قال شخص لآخر: أتصدقنى إن قلت لك بأنك مدين بخمسين؟، فأجابه الثانى: نعم، لزم الثانى التصديق بخبر الأول بقيمة الدين ما دام مساويا للخمسين

أو اقل، أما إذا جاوز فى خبره قدر الخمسين لم يلزم الثانى شىء، لأنه سيقول أخبرتك أنى أصدقك حتى الخمسين، أما ما زاد على ذلك فسيحتاج إلى دليل آخر.

وبناء على ذلك فإن النبى ﷺ ذكر للناس قضيتين، وأخذ من تصديقهم به فى خبره عن القضية الأولى سببا لإلزامهم التصديق به فى خبره عن القضية الثانية، وبالتالى فالتصديق بالخبر فى القضية الأولى سيكون أعظم مشقة وأبعد تصديقا من التصديق بالخبر فى القضية الثانية، وإلا لم يكن لهذا الدليل أثر فى إقامة الحجة، وبيان الأمر.

وعلى ذلك فإن التصديق بخبر وجود الجيش هو أعظم مشقة وأبعد تصديقا من الخبر بأن محمدا ﷺ هو رسول الله.

وهذا هو ما يحتاج إلى بيان.

لكن قبل أن أشرع فى هذا التوضيح ينبغى أن نلفت الأنظار إلى أمور استخدمها النبى ﷺ فى بيانه مما يظهر معها أن الأمر كان ظاهرا لا لبس فيه، وأنه ﷺ اغتنم كل ما بين يديه لئلا يدع لأحد شبهة فيما أخبرهم به، ومن ذلك ما يلى:

أولا: أن النبى ﷺ اختار أن يحدث الناس من على جبل الصفا بجوار الكعبة، وهو فى هذا اختار مكانا لا يخلو من أفراد من غير أهل مكة، وسيأتى أولئك لا محالة إذا سمعوا الصارخ ليتبينوا الموقف، فيكون ﷺ إذا أقام الحجة على أهل مكة فقد بين لغيرهم صدقه لا محالة، وسيبلغ الشاهد الغائب لا محالة، لأنه حدث مما تسير به الركبان، وبالتالى فكأنه بلغ غير أهل مكة وإن لم يتجه لهم بالحديث، واحتاط أمام هؤلاء الأغيار من تكذيب أهل مكة له بعد ذلك بما شهدوه فى هذا الموقف.

كما أن صعوده على جبل الصفا وحديثه مع الناس من عليه فيه إظهار شخصه للجميع فلا يلتبس فى شخصه ولا كلامه أحد، كما أنه ضمن بذلك أن يسمع صوته ويكمل بلاغه دون محاولة المقاطعة والتشويش من الآخرين.

ثانيا: أن النبى ﷺ اختار وقت أول النهار لدعوة الناس ليخبرهم بأمره، وهوأنسب الأوقات ليسمع الناس دون ملل أو سخط، فإنه لو دعاهم ليلا لأخرج الناس فزعين لا يلوون على شيء، فلو رأوا الأمر لا يستحق هذا الفزع من جانبهم بهذه الطريقة انقلبوا على صاحب الدعوة سخطا، وعلى خبره تقليلا ومعاداة ولو كان حقا، مع ما يفوت كثيرا من الناس، لأنهم ليسوا جميعا سيستيقظون، وليس جميعهم سيخرج، وأيضا لن يوصل صوته إلى كل بقاع مكة، مع ما سيفوته من حضور الغرباء عن مكة كما ذكرنا بالنقطة السابقة.

وإن جمعهم آخر النهار والناس فى تعب من مشقة اليوم وعملهم فلن يكونوا على نشاط للسماع والمناقشة، ولعل أحدا يزعم أنهم سلموا له بالصدق رغبة فى إنهاء الموقف والوصول إلى سماع ما عنده، ثم إنهم حينئذ سيكونون فى عجلة لإنهاء أمورهم قبل حلول الليل، وانتهاء وقت العمل فيهم.

أما الدعوة فى أول النهار –والتى يدل عليها قوله ﷺ: "ياصباحاه"– فإنه يضمن وقتا يكون الناس فيه فى نشاطهم، وهدوء أعصابهم فى أول اليوم قبل التوتر الذى يصيب المرء من العمل أو الشمس حين ارتفاعها بوسط السماء، وكذلك فإنه يضمن تواجد كثيرين منهم باعتبار أن الكعبة وما حولها هى مواضع أسواقهم ونواديهم، ثم هو يعطى بذلك الفرصة لانتقال الخبر بين أهل مكة وغيرهم يتناقشوا فيه على مهلهم، بدلا من الانتظار

لليوم التالى فتضيع به حرارة الموقف، وسخونة اللقاء.

ثالثا: أن النبى ﷺ لم يذهب لفئة محددة ككبراء قريش فى نواديهم، ولا إلى عوامهم فى أسواقهم، بل حرص على أن يجمع الكل حوله، سادة وعبيدا، رجالا ونساء، من أهل مكة أو من خارجها.

وبالرغم من أن التأمل فى الدعوة يحتاج إلى الخلوة والقلة ليكون أبعد عن العصبية والتشويش، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ (سبأ ٤٦)، أقول بالرغم من ذلك إلا أن جمع الجميع خاصة وعامة فى وقت الدليل يؤدى إلى إقامة الحجة على الجميع وتأكيد الأمر عليهم دون مماطلة أو ظن، وذلك بشرط أن يكون الدليل واضحا لا لبس فيه، ظاهرا لا يحتمل المناقشة حوله، لأن عقول العامة سريعا ما تتشوش بالشبهة، وتنساق وراء كبرائها إذا لبسوا فى الدليل، ولهذا لم يكن من الصواب المناظرة أمام العامة فى أمور تحتاج إلى دقيق الخطاب، وتفصيلات العلوم.

والنبى ﷺ اختار هذا الجمع لأن دليله واضح، وحجته دامغة، فلا يخاف أن يشوش عليه أحد، بل سيتناقل الناس عوامهم وخواصهم أنه قدم دليلا لم يستطع أحد مواجهته فيه، وما فعله أبو لهب هو فى حقيقة الأمر تأكيد لقوة حجة النبى ﷺ أمام الجميع، فلن يتكلم العامة إلا عن سطوع الحجة وضآلة الرد.

وهذا الأمر –إقامة الدليل أمام العامة– منهج من مناهج الدعوة يؤتى ثماره إن أحسن استعماله، وتقيد المحاور بضوابطه.

وقد حكى القرآن والسنة مواقف من ذلك، وبينا أثر وضوح الحجة فى

تبكيت المعاند وإخراسه، وأن المعاند حينذاك قد يلجأ للتخويف والتهديد أو إلى التشويش لمحاولة رد ذلك الوضوح من الدليل، ولكن هيهات، وسأذكر هنا بعضا من تلك المواقف:

أ- يحكى القرآن الكريم محاجة إبراهيم للملك الذى نازع فى الألوهية، فحين أخبره إبراهيم عليه السلام بأن الله يحيى ويميت، قال الملك: أنا أحيى وأميت، وأمر برجلين حكم عليهما بالإعدام فعفا عن واحد وضرب عنق الآخر، ولما لم تكن هذه الصورة هى ما أراده إبراهيم عليه السلام من الإحياء والإماتة، ولأن الموقف موقف جدال أمام العامة، وهو موقف لا يحتمل شرحا وتوضيحا، انتقل إبراهيم عليه السلام إلى أمر أشد وضوحا، فقال له: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب، فإن ذلك من ممكنات القدرة الإلهية لا محالة، فكانت النتيجة أنه بهت الذى كفر، واستقرت الحجة على الجميع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة ٢٥٨).

ب- وفى قصة إبراهيم عليه السلام أيضا لما جمع له قومه الناس ليسألوه عن آلهتهم المحطمة، وجاءوا به والناس تنظر، فسألوه، فأجابهم بما فاجأهم وأقام الحجة عليهم أمام قومهم، وأظهر فساد معتقدهم، فلما ظهر ذلك، بين لهم خطأ ما هم فيه، فما كان منهم إلا أن تركوا نقاش الحجة إلى سبيل التهديد والوعيد، بل واستثارة الحمية الدينية عند الناس ضد إبراهيم عليه السلام، واستثاروهم لإيقاد نار لإحراقه، فكانت الحجة الإلهية مرة أخرى أمام العامة لتخرسهم وتدمغهم بأن صارت النار بردا وسلاما على إبراهيم.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ (الأنبياء ٥٩-٧٠).

جـ- ولما أظهر موسى عليه السلام حجته أمام فرعون وملأه، زعم فرعون أن هذا سحر، وطلب من موسى موعدا ليتحداه بسحرته، فاختار موسى عليه السلام أن يكون التحدى وقت الضحى فى يوم عيد ليضمن وجود أكبر جمع من الناس، وأن يجتمع الناس ليروا التحدى، وبالفعل جمع فرعون الناس والسحرة، فلما ظهر موسى عليه السلام عليهم، وأقر له السحرة بالرسالة، وآمنوا بدعوته، أسقط فى يد فرعون فلم يجد أمامه إلا أن يتهمهم بأنهم ما هم إلا تلامذة لموسى، وأنهم يتآمرون معه ضد فرعون وقومه، وهددهم وتوعدهم فلم يزدهم إلا ثباتا.

وذلك كله مما أكد أمام الناس صدق دعوته، وهم يعلمون كذب فرعون فى ادعائه، إذ إن موسى كان خارج البلاد عشر سنينن فمن أين له أن يعلم السحرة، أو يتآمر معهم وهم مجموعون من مدائن متفرقة.

لكن فرعون استدرج قومه بكلامه فاتبعوه، فأهلكهم الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ (طه ٥٦-٧٢).

وقال تعالى فى حق فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ (الزخرف ٥٤-٥٧).

د- وقد أخبر النبى ﷺ عن قصة غلام الملك، والذى تعلم الحق من راهب لقيه، وفيه أن الملك لما يئس من قتل الغلام، أرشده الغلام إلى أنه لن يستطيعه حتى يجمع الناس كلهم ويأخذ من كنانة الغلام سهما ويقول: باسم الله رب الغلام، بالرغم من أن الملك كان يدعى الألوهية، ففعل الملك كما قيل له، فآمن الناس جميعا، لما وضحت لهم الحقيقة بما لا ريب فيه، فحفر لهم الملك أخدودا أحرق به المؤمنين، فلم يرتد منهم أحد.

قال ﷺ كما فى الصحيح: "... فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي

فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ"[(١)].

إذا تم ماسبق نقول إننا نحتاج الآن إلى بيان حال القضيتين اللتين أخبر بهما النبى ﷺ، وهما قوله: "لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم"، وقوله: "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، من حيث ما تحتاجه كل منهما للتصديق، وأيهما إذا تم تصديقها فالأخرى أولى حينئذ بالتصديق.

والذى نريد أن نخلص له بالنهاية أن التصديق بالقضية الأولى أعظم مشقة وأبعد فى الذهن من التصديق بالقضية الثانية، وبالتالى فما دام القوم صدقوا بالقضية الأولى فيلزمهم من باب أولى التصديق بالقضية الثانية، فيظهر حينذاك أن دليل النبى ﷺ كان صحيحا واضحا ملزما للناس فى تلك الحالة.

ولكى نبين ذلك فسنقارن بين حال كل قضية على حدة، وموقف كل منهما من حيث القبول والرفض، أو التصديق والتكذيب، وذلك فيما سيأتى:

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، صحيح مسلم بشرح النووى،جـ ١٨، ص ١٣٠-١٣٣.

المطلب الثالث

تحليل القضية الأولى

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم"

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذه القضية لا شيء فيها يمنع من تصديقها، وخصوصا إذا علمنا أن كثيرا من أهل الجزيرة العربية كانوا يعيشون على السلب والنهب والإغارة على القبائل الأخرى، أو القوافل المارة عليهم، وأنهم اعتزوا بهذا الفعل حتى إنهم تعارفوا فيما بينهم أنه لا يرث الميت من أولاده ذكر ولا أنثى كبير ولا صغير إلا إذا قاتل وغنم، فكانوا يقولون: "لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة"(١)، كما قالوا: "لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وحاز الغنيمة"(٢)، أو "إلا من أطاق القتال"(٣)، وكلها قريبة المعنى، وكلها تؤكد تلك الفكرة القائلة بأن وجود الجيش المغير للسلب والغنيمة أمر لا شائبة فى التصديق به.

لكن التأمل فى الحال التى معنا يوصل إلى أن هذه القضية يحول دون التصديق بها عوائق ومعضلات، تجعل التغلب عليها ليتحقق ذلك التصديق ضربا من المستبعد القريب من حيز الاستحالة، أو ضربا من الممكن عقلا المستحيل واقعا، وكأن وقوع تلك الحالة صار من المستحيل لغيره، وإن لم يكن كذلك حقيقة، لكنه على سبيل المبالغة وإظهار حقيقة الموقف.

---

(١) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشرى، جت ١، ص ٥٠٣، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

(٢)تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان، جـ٥، ص١٢٨، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى، جـ ٧، ص ٣١، تحقيق أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

إن الذى يحول بين الناس ذلك الزمان والتصديق بهذه القضية أمور عديدة، يكفى وجود أحدها لترفض القضية من أساسها، فكيف إذا اجتمعت كلها وتعددت، وذلك كما سيأتى:

أولا: إن مما يبعد هذه القضية عن التصديق هو النظر فى طريقة تكوين الجيوش والخروج بها لأى قتال بحسب ذلك الزمان، فإن النبى ﷺ لما نكر كلمة "خيل" لم يرد بذلك العموم المطلق الذى يتحقق بأى عدد ولو يسير من الخيل أو الرجال، لأن الواضح من شدة التحذير أن الأمر خطب جلل، وهذا يعنى أن العدد كبير، فالتنكير هنا للتعظيم.

وهنا نقول قد يظن ظان أنه لا مانع من خروج الجيش خفية ليباغت عدوه، لكن التأمل فى واقع العرب حينذاك يرد ذلك الظن صفرا.

فلم تكن حينذاك جيوش نظامية، ولا معسكرات جند، يمكن تحريكها فجأة لتحقيق أهدافها، بل كانت الجيوش حينذاك تتكون وقت الحرب من أفراد القبيلة أو بعضهم، فإذا حسم الأمر بالقتال تشاوروا فيما بينهم، ثم انتدبوا بعضهم بعضا للخروج، فيحمل كل منهم ما عنده من عدة، ويتفقوا على موعد محدد للخروج.

وفى ذلك كله فالأمر يتردد فى المشورة بين ضرورة القتال أو عدمه، وبين الموعد الذى ينبغى الخروج فيه،وكذا من الذى سيتولى القيادة حينئذ، وإلى أين الوجهة، كما ينبغى انتظار من كان منهم فى سفر لتجارة أو غيرها، وعلى كل واحد أن يتدبر حال نفقته ونفقة أهله وقت الحرب، إذ لم تكن هناك موازنة عامة خاصة للإنفاق فى ذلك الوقت.

كل ما سبق يستدعى جهدا، ويستغرق وقتا، ولا يمكن السرية الكاملة فيه، فلا أقل إذا لم تعرف الوجهة أن ينتشر خبر الاستعداد للخروج، وبخاصة مع ذلك العدد الكبير.

ولعلنا نعلم -كما ورد بالحديث- أن النبى ﷺ كان من شأنه بعد الهجرة أنه "قلما يريد غزوة إلا وارى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة (تبوك) ... فأخبرهم بوجهته"(١)، فإن ذلك كان من ضرورات التخفى فى المعركة، فهو ﷺ كان يسر بوجهته، لا فى الاستعداد للخروج، إذ ذلك ليس مما يستطاع كتمانه عادة.

ولما أراد ﷺ الخروج إلى مكة وحرص على السرية التامة إذا بحاطب بن أبى بلتعة يرسل لقريش يخبرهم بالأمر، وكاد الخبر أن يصل لولا عناية الله بنبيه، روى البخارى ومسلم -واللفظ له- عن عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَهُوَ كَاتِبُ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه، وَهُوَ يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ

(١) رواه البخارى ومسلم، وانظر مسلم كتاب التوبة، باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٧، ص ٨٧ وما بعدها.

الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ (الممتحنة ١)"(١).

وعلى ذلك فإن الخبر بخروج الجيش لو كان صحيحا لتسامع الناس به من قبل خروجه، ولعل أبرهة الأشرم لما جهز جيشه ليهدم الكعبة عرف الناس فى مكة بجيشه واستعداده بل ووجهته قبل خروجه من صنعاء باليمن.

وثمة أمر آخر وهو أن العرب لم تتعود خروج العدد الكبير فى معاركها إلا فيما ندر، بل غاية الأمر أن تكون سرية هنا أو هناك، فخروج هذا العدد مما سيستدعى الانتباه والتساؤل، وستسير به الركبان حتما، فإذا لم يوجد شيء مما سبق ألا يكون هذا مظنة عدم الصحة فى الخبر الذى يقول بأن جيشا خلف الوادى يريد أن يغير عليهم.

ثانيا: إن مما يبعد التصديق عن هذه القضية أيضا أن مكة ليس حولها من العمران ما يمكن التخفى فيه سيرا، وإنما ما حولها –كبقية الجزيرة العربية– صحراء قاحلة، تقطعها الركبان ليالى لا يجدون أحدا.

وهذه الصحراء الشاسعة سينفذ فيها البصر مسافات شاسعة، فيطلع المرء فيها على ما لا يصل إلا بعد ساعات أو أيام، كما أن الغبرة الواقعة من سير العدد الكبير من الرجال والدواب سيثير غبارا يكشفه أهل المناطق البعيدة، كما أن الأصوات فيها تتواصل فى غير عوائق مسافات واسعة.

ولهذا عرف العرب ما يسمى بالنذير العريان، وهوأن الرجل إذا خشى

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم، باب فضائل حاطب بن أبى بلتعة وأهل بدر رضى الله تعالى عنهم، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٦، ص ٥٥.

فوات الوقت على قومه فى تحذيره لهم من خطر يتهددهم، خلع ثوبه فأشار به علامة على ذلك الخطر، فيراه الناس قبل وصوله بساعات فيحترزون من عدوهم، وقد ورد هذا الوصف فى حديث رسول الله ﷺ حين قال: "مثل ما بعثنى الله تعالى به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به من الحق، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق"(١).

وإن المتأمل فى أخبار ذلك الزمان يعلم أن أخبار القوافل والجيوش تسرى فى الطريق قبل وصول أصحابها بمدة ليست بالقصيرة، فلقد علم النبى ﷺ مثلا هو وأصحابه بخبر قافلة قريش التى كانت عائدة من الشام بقيادة أبى سفيان قبل وصولها بمدة، حتى إن النبى استنفر أصحابه للخروج إليها فخرجوا.

ولما فاتتهم قافلة أبى سفيان علموا بخروج قريش إليهم قبل وصولهم بفترة، سمحت لهم بأن يختاروا مكان اللقاء، ويستعدوا له بتجهيزه للمعركة، وإن لم يكونوا مستعدين لها عدة.

بل لقد ورد أن النبى ﷺ خرج مع أبى بكر الصديق رضي الله عنه لما وصل إلى بدر حتى لقى شيخا من العرب يقال بأن اسمه سفيان الضميرى، فسأله النبى رضي الله عنه –والرجل لا يعرفهما– "عن قريش وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟، فقال رسول

---

(١) رواه البخارى ومسلم، واللفظ لمسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته × على أمته، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٥، ص٤٨-٤٩.

الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟، قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى به رسول الله ﷺ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟، فقال رسول الله ﷺ: "نحن من ماء"، ثم انصرف عنه"(1).

فانظر كيف سبقت الأخبار وانتشرت قبل ورود الجيشين بحال.

ولقد ورد أن النبى ﷺ كان من وصيته لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما أن قال له: "وأسرع المسير تسبق الخبر"(2)، وستأتى الوصية بتمامها إن شاء الله.

بل لقد عرف النبى ﷺ بتجهز جيش الروم له قبالة تبوك على مسيرة شهر، فخرج بجيشه إليهم، فإذا بهم لما سمعوا بمسيره إليهم رجعوا أدبارهم.

وقد أشرت من قبل إلى أن قريشا والعرب عرفوا بجيش أبرهة قبل خروجه من صنعاء، وتتبعوا أخباره فى مسيره إليهم.

ثم إن خروج أى جيش ليقطع الصحراء لا بد أن يلفت إليه الأنظار، ويدفع الناس إلى محاولة استكشافه وتتبع أخباره.

لكن شيئا من ذلك كله لم يكن متحققا فى هذه الحالة التى جاء فيها الإخبار بوجوده، فهل يتصور أن يخرج جيش يريد مكة وأهلها، فيقطع الفيافى والقفار، ويثير بحركته الغبار والأصوات مدة من الزمان، ثم لا ينتبه

---

(1) راجع السيرة النبوية، ابن هشام، جـ ٢، ص٢٣٤.

(2) ذكره ابن حجر فى شرحه المسمى بفتح البارى بشرح صحيح البخارى، ج٧، ص٨١٩، كتاب المغازى، باب بعث النبى × أسامة بن زيد ^ فى مرضه الذى مات فيه.

له أحد، ولا يتناقل خبره أحد، وقد كان الوفود إلى مكة كل حين من كل مكان، ولهم فيها أصحاب وتجار، فلم ينطق أحدهم بشىء.

ألا يشير ذلك كله إلى أن التصديق بخبر الجيش الذى أشرف على مكة أمر عسير، ولا يتصور وقوعه من جهة العقل بحال.

ثالثا: إن مما يبعد التصديق عن هذا الخبر أيضا النظر فى أن هذا الجيش الذى يريد مهاجمة مكة، إما أن يكون من غير العرب، أو من العرب أنفسهم، والأول بعيد التوقع فى حدوثه، فإنه لا عداوة بين قريش وأحد من غير العرب ليتجشم بعضهم مشقة الوصول لمكة لمهاجمة قريش، فضلا عن أن هذا الذى يريد قصد مكة من غير العرب سيأتى من أطراف الجزيرة العربية وخارجها فيسير فى الصحراء مدة لن تقل بحال من الأحوال عن شهر كامل، وهذا مما يبعد عدم العلم به والاستعداد له.

بل إن هذا المهاجم –ما دامت لا عداوة حقيقية مع قريش– سيكون اعتداؤه عندئذ لأجل الكعبة، كما فعل أبرهة، وهنا ستكون حربه مع العرب كلهم، لا تختص بقريش فقط، وعندئذ سيتصدى له من العرب رجال وقبائل قبل وصوله إلى مكة، فإن أبرهة لما خرج يريد الكعبة لم يكن سيره يسيرا سهلا، بل واجهه من العرب بعضهم فى عدة مواطن، كما ذكرت كتب السير، فقد قاتله من عرب اليمن أقوام بقيادة رجل يسمى ذو نفر، فهزمهم أبرهة، ثم عرض له بأرض خثعم قبائل من العرب بقيادة نفيل بن حبيب الخثعمى فهزمهم أيضا[(١)].

وبالتالى فإن احتمال كون ذلك الجيش من غير العرب حتى وصل إلى أطراف مكة دون أن تصل أخباره إلى أهل مكة احتمال غير مطروح هنا.

---

(١) المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٦.

أما الاحتمال الآخر وهو أن يكون هذا الجيش من العرب أنفسهم فهو احتمال أشد بعدا واستنكارا، لأن العرب عرفوا لمكة قدسيتها وحرمتها، وثبت ذلك فى يقينهم ووجدانهم، وتناقلوه جيلا بعد جيل، مما يبعد معه اجتراء العدد منهم على تعدى حرمة الكعبة وأهلها.

لأنه لا شىء يمكن أن يكون قد طرأ على العرب أو بعضهم فغير هذه القدسية من نفوسهم، وإذا كان بعض العرب امتنعوا عن الإيمان بالحق بعد إذ جاءهم متعللين باتباع ما وجدوا عليه أقوامهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ (البقرة ١٧٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ (لقمان ٢١)، فإذا كانت تلك هى حجتهم فى مقابل الحق أفيتصور أن يتركوها بدون أى دافع من حق أو باطل.

ولكى نتبين مقدار هذه المكانة والقدسية فى نفوس العرب نشير إلى المواقف الآتية:

أ- رحلات تجارة قريش المطمئنة ذهابا وعودة، شمالا للشام وجنوبا لليمن، دون أن يتعرض لها معتد، أو يجترأ عليها أحد، بالرغم من أن كثيرا من العرب كانوا يعيشون على هذه القوافل نهبا أو حماية.

والسبب الذى كانت قوافل قريش أقل تلك القوافل تعرضا للخطر هو أنهم فى جوار البيت الحرام، وسدنته القائمين على شئونه.

وقد امتن الله على قريش بذلك، وبين السبب فى هذا، فقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ (قريش ١-٤).

فهل يتصور أن تحمى العرب قوافل قريش وهى تجوب الصحراء الخالية

احتراما لهذا البيت ثم تهاجم البيت الحرام أو ساكنى جواره.

ب- أن مكة كانت أكثر بقاع العرب أمنا وأعظمها خيرا بما يسوقه الناس إليها بغرض التجارة أو القربى بسبب هذا البيت، حتى ولو كان الوقت قحطا أو شديدا.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم وسجله فى مواضع، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴿٦٧﴾﴾ (العنكبوت ٦٧)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾﴾ (القصص ٥٧).

وهذا الذى سجله القرآن كان إقرارا لواقع، وإخبارا عنه، وليس إنشاءا لموقف جديد لا يعرفونه، أو طلبا لأمر لم يتعودوه.

فهل يتصور أن يحرص العرب على أمن أهل مكة، بل ويتعارفون على سوق الخيرات إليها، ثم يتوقع منهم أو من فريق كبير منهم أن يعتدى على البيت الحرام، أو أهله، وبدون سبب عداوة منهم.

جـ- أن مكة لم تكن بلدا آمنا لأهلها فقط بل كانت أمنا حتى لغير أهلها، وقد كان العرب مع حميتهم، وسعيهم فى الثأر والانتقام، إذا رأى أحدهم بمكة قاتل أبيه أو أخيه لم يتعرض له بسوء[1].

وقد سجل القرآن ذلك فقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ (آل عمران ٩٧).

---

(١) انظر مثلا تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، جـ ١، ص١٦٨، المكتبة التوفيقية، بدون بيانات.

بل إنه كان إذا حدثت مظلمة لبعضهم -سواء من أهل مكة أو خارجها- لم يكن للمظلوم إلا أن يلجأ لأهل مكة أنفسهم ليسترد مظلمته، ولم يكونوا يستثيرون أحدا غيرهم، وهذا واضح فى حلف الفضول، والذى كان بالجاهلية، وشهده النبى ﷺ مع أعمامه، وقال فيه: "لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت"[1]، وكان سبب هذا الحلف -كما ذكرته كتب السير- أن رجلا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه أحدهم ثم منعه حقه، فلم يجد الرجل أحدا ينصره على ظالمه، فخرج حتى أوفى عند الكعبة، فاستصرخ الناس لمظلمته، وكان مما قال:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن ماتت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فاجتمع من قريش بعض سادتها فتحالفوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما إلا كانوا معه حتى يسترد مظلمته[2].

فهل يتصور أن يأمن الغريب فى مكة ثم لا يأمن أهل مكة أنفسهم.

د- لقد تعارف العرب على تقديس الأشهر الحرم، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وكان تحريم هذه الأشهر يعنى أمان الطريق فى أنحاء الجزيرة العربية، فلا قتال ولا إغارة أو سلب، وما كان ذلك إلا ارتباطا بمواسم العمرة والحج، ليأمن الناس طريقهم ذهابا وعودة لأداء نسكهم.

وكان إذا شق عليهم الامتناع ثلاثة أشهر متواليات عمدوا إلى تأخير

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، جـ ١، ص ١٠٢.

(٢)البداية والنهاية، ابن كثير، مجـ ١، جـ ٢، ص ٢٩٥-٢٩٦.

شهر المحرم شهرا، فيجعلون المحرم صفرا وصفر المحرم، وهو ما يسمى بالنسيء، أى أنهم عمدوا إلى ما يظنونه المحافظة على حرمة الشهر الحرام ولم يجهروا بالتعدى فيه.

وهذا النسيء هو ما عابه القرآن عليهم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ٣٧﴾ (التوبة ٣٧).

فهل يُظن أن يحافظ العرب على الأمن لمن أراد مكة، ثم يفزعون أهل مكة والقادمين إليها بقتال.

هـ- أن العرب كانوا يعظمون الكعبة تعظيما شديدا، وكانوا يرون لأهل مكة فضلا فى أداء شعائرهم دون نكير، حتى ابتدعوا أشياء إن دلت فإنما تدل على تقديرهم للكعبة، واستعدادهم على فعل ما قد يبذلون نفوسهم فى غيره لئلا يفعلوه.

فمن ذلك أن قريشا ابتدعوا ما يسمى برأى الحمس، وكانوا يرون ألا يقفوا مع الناس بالموقف، ويحرمون على أنفسهم وقت الإحرام بالنسك أمورا معينة.

ثم زاد الأمر وطأة أن العرب تعارفوا على أن طائفة منهم إذا أرادت الطواف لم تطف إلا بثياب من ثياب الحمس -وهم أهل قريش- أو إذا لم يجدوا طافوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم، رجالا ونساء، إلا أن المرأة تضع على فرجها شيئا ثم تطوف وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، وما بدا منه لا أحله.

فلما فتح النبى ﷺ مكة فى العام الثامن من الهجرة بعث على بن أبى طالب رضي الله عنه فى حج العام التاسع للهجرة وأمره أن يقرأ على الناس صدر سورة براءة، وأن يعلن فى الناس أربعة أمور، هى "أيها الناس لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته"(١).

وهكذا كانوا يطوفون عرايا بالرغم من أن حمية العرب وغيرتهم كانت شديدة ومعروفة.

فهل يُتصور أن يعظم العرب البيت هذا التعظيم ثم يجترئون على حرمته وحرمة ساكنيه ووافديه بأى حال من الأحوال.

و- بل إن بعض الروايات التى تحدثت عن بداية عبادة الأصنام بين العرب تقول بأنه لما ضاقت مكة بأهلها -وبخاصة أنها أرض وعرة صخرية جبلية لا تصلح لرعى أو زراعة- خرج منها بعض أهلها طلبا للمستقر والرعى، لكنه شق عليهم الابتعاد عن البيت الحرام، فحمل بعضهم معهم من حجارة البيت أو مكة، ليظلوا على تذكر لها.

وكانوا يحرصون على حمل هذه الحجارة فى حلهم وترحالهم، وكانوا يتعاملون معها كما يتعاملون مع الكعبة، فيطيبونها ويطوفون بها.

فلما تقادم العهد ونسى الناس عبدوها من دون الله.

فهذا ما نشأت عليه أجيال العرب، فهل يتصور بعد ذلك أن يجترئ أحد منهم -وبعدد كبير- على حرمة مكة وأهلها.

وبناء على كل ما سبق فإنه لا يتصور التعدى على مكة وأهلها، لا من العرب أو من غيرهم، لا فجاءة أو توقعا.

---

(١) انظر المرجع السابق، مج ٣، جـ ٥، ص ٣٦.

رابعا: مما يؤثر أيضا فى سلامة هذا الخبر ويثير الشك فى صدقه أنه لا سبب معقول يمكن من خلاله التصديق بوجود دافع لهذا الاعتداء.

فالجيش المهاجم إما أن يكون دافعه عداوة حامية مع قريش، أو لاستلاب ما لديهم من مغانم، أو للسكن بمكة بدلا من قريش.

أما السبب الأول وهو وجود عداوة حامية بين أولئك المهاجمين وقريش، فهو أمر غير موجود، إذ لا عداوة بين قريش وغيرها، فضلا عن أن تكون عداوة كبيرة تحمل أصحابها على تعدى حرمة مكة، ومهاجمة أهلها.

وقد كانت قريش حريصة –مع ما لها عند العرب من مكانة لأجل مكة– ألا تثير عداوة مع أحد من قبائل العرب وبطونها، ومما يشهد لذلك ما ورد فى قصة إسلام أبى ذر رضي الله عنه، حيث قال حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى"،: "والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكبّ عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟! فأنقذه منهم،..."(١).

إذا فلا عداوة ظاهرة حامية بين قريش وغيرها، فأما إذا كان الدافع للهجوم هو السبب الثانى، وهواستلاب ما عند قريش من مغانم، فهو سبب واه لا معول عليه.

لأنه ما الذى يدفع قوما لتعدى حرمة مكة، وتعريض أنفسهم للطعن والنزال، وأموال أهل مكة كلها سائغة بين أيديهم كما يريدون.

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم، باب فضائل أبى ذر رضى الله تعالى عنه، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٦، ص ٣٤.

فلو أرادو السوائم من أموال قريش فلقد علم الناس أن مكة لا رعى فيها لدابة، وأن أهل مكة لو أرادوا رعى أنعامهم خرج بها بعضهم إلى أراض خارج الحرم ليرعاها لهم، وكان هذا الرعى شائعا بين أهلها، حتى لقد قال ﷺ: "ما بَعَثَ الله نبياً إلاَّ رَعَى الغَنَمَ". فقالَ أصحابُهُ: وأنتَ؟ فقال:"نَعَمْ، كُنْتُ أرعاها على قَراريطَ لأهلِ مكَّةَ"(١).

وبالتالى فمن أراد أنعام أهل مكة فهى خارجها فليستلبها إن شاء دون التعرض لمكة ولا دخولها.

ولو أراد ما عند أهل مكة من المال والتجارة فتلك قوافل تجارتهم تذهب شمالا وجنوبا فى صحراء لا نجدة فيها ولا مهرب، فليأخذها من هناك من شاء.

بل هى فى هذه الحال أيسر تناولا وجمعا، بدلا من التنقيب فى البيوت المتناثرة بحثا عنها هنا أو هناك.

فظهر من ذلك أن هذا السبب لا يصح دافعا للهجوم.

أما السبب الثالث وهو حب التوطن بمكة بدلا من أهلها، فهو أيضا غير كاف فى هذه الحال، إذ لو كان لأجل الأرض بعينها فليس فيها مغنم يغرى أحدا بالتوطن فيها، وقد علم الجميع أنه لولا الكعبة ما سكن هذه البقعة كثير ولا قليل، إذ هى جبال وعرة وأرض غير خصيبة.

أما إن كان يريدها لبركة المكان فذلك لا يتصور، لأن البركة أمر إلهى يهبه من يريد، وما كان يتصور أن أحدا يصدق أو يظن أن الله تعالى يعطى بركته بتعدى حرماته ورغما عنه، إلا ما زوره أهل الكتاب فى كتبهم من مثل ذلك مما لا يتصور حدوثه حقيقة.

---

(١) مختصر صحيح الإمام البخارى، جـ٢، ص٨٣.

فمن كل ما سبق يتضح أنه لا سبب يدفع لهذا التعدى، فلماذا يصدقون بخبر هذا التعدى أصلا.

خامسا: مما يؤثر فى التصديق بهذا الخبر أيضا هو حقيقة واقع أرض المعركة المفترض فى هذه الحالة.

فقد علم الجميع أنه ليس الغرض من الإنذار "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف الوادى تريد أن تغير عليكم" هو مجرد الإخبار بوجود الجيش، بل الغرض التحذير من مغبة التعرض لهجومه، وتوقع السوء من غارته.

وهنا سيكون التساؤل، وما الذى يثير القلق بالنسبة لأهل مكة من هذا الهجوم؟.

أليست أرض مكة جبالا وعرة، وتلالا منحدرة، وأرضا غير منبسطة، وبالتالى فلا يتخوف معها من هجوم خيل منظم، لأنها لا تناسب الخيول فى جريها وكرها وفرها، بل قد ينقلب وجود الخيل ليكون نقطة ضعف على أصحابها.

إذا فليجرب أصحاب الخيل ذلك الهجوم ليكون حالهم عبرة لغيرهم.

ثم إن مكة بتلك التضاريس الصعبة مع بيوتها المتقاربة، وشوارعها وأزقتها التى سيكون بالضرورة أهل مكة أدرى بشعابها، ستكون وبالا على المهاجمين سواء كانوا ركبانا أم رجالا.

وعندئذ سيتفرق جهد الجيش، وتضيع معالمه، وتكون الدائرة عليه.

ولقد علمنا أن النبى ﷺ كان من رأيه لما شاور أصحابه قبل غزوة أحد أن قال: "فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها"(١)، مع أن المدينة أرض

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، جـ ٣، ص ٥٨.

منبسطة يكثر طرق الدخول إليها، والقتال فيها، ومع ذلك كانت أفضل فى مواجهة المهاجمين، إذ يتفرق الجيش، ويتصيدهم الناس فى أزقتها، وتشاركهم النساء من فوق البيوت.

فما بالنا بمكة ووعورة أرضها، وقد حدث بعد ذلك أن الحجاج لما حاصر عبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما بمكة، حاصرها ما يزيد على خمسة أشهر ونصف، ونصب المجانيق يرميهم بها حتى تهدمت أجزاء من الكعبة، واستمر على ذلك حتى استطاع قتل ابن الزبير رضي الله عنه لما جاءته إحدى تلك الحجارة فأصابته[1].

ولوقارنا ماحدث هنا بوقعة الحرة بالمدينة عام ثلاث وستين من الهجرة لعلمنا الفرق فى طبيعة الأرض، وأثر ذلك فى سير المعارك[2].

ألا يعنى ذلك كله أنه لا مجال للتصديق بهذا التحذير الشديد الصادر فى هذا الموقف.

سادسا: إن مما يبعد التصديق بهذا الخبر أيضا ما يعاينه الناس حقيقة فى تلك اللحظة التى يرد إليهم فيها هذا الإنذار الواضح.

فإن وصول جيش إلى أطراف مكة حتى أشرف عليها، وبقاءه فى مكانه حتى ارتفاع النهار، والجو صحو، والناس يقظى، والخلق يدخلون مكة ويخرجون سواء من أهلها أو غيرهم، وسواء أكان ذلك للنسك أو الزيارة أو التجارة، فإن كل ذلك سيعطى إشارات عديدة تفضح مكان الجيش، وتظهر وجوده، مهما حاول التخفى والاختباء.

فالجيش لن يصل فجأة بعد طلوع النهار، نظرا لما كان معروفا من

(١) انظر البداية والنهاية، ابن كثير، مجـ ٤، جـ ٨، ص ٣١٣ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع السابق، مجـ ٤، جـ ٨، ص ٢٠٦ وما بعدها.

طريقة السير وأعبائها، وبالتالى فإن اقترابه من مكة سيكون مكشوفا لا محالة لمن دخل أو خرج، وها هم الناس من أول النهار من أهل مكة ومن غيرها يدخلون ويخرجون حتى ارتفع النهار فلم يلحظ واحد منهم شيئا، ولو كان الجيش بهذا القرب فلا بد من أن يلاحظه البعض يقينا.

ثم إن الجو صحو لا يرى فيه غبرة وارتفاع للتراب من أثر حركة الخيل والإبل فى أماكنها، وتلك حركة لا تحكم لأحد فيها، وكذا من أثر حركة الأرجل فى ذهابها وجيئتها فى معسكر الجيش، فرؤية العين لآثار وجود ذلك الجيش تقول إنه لا وجود له أبدا.

وأمر آخر يعرفه أهل ذلك الزمان يقينا، وهو أن الريح ستحمل روائح خاصة تميز وجود ذلك العدد من الخيل والإبل فى مكان واحد، وبطريقة فجائية، سواء كانت روائح أجسادها، أو روائح مخلفاتها الحديثة التى وضعتها هناك، وتلك أمور لا يستطيع أحد أن يخفيها، ولا أن يتجاوزها، ولأن مكة بين جبال فلن يخشى تفرق الروائح قبل إدراكها، بل سيكون الأمر أوضح من غيره، ومع ذلك فإن شم الريح لا ينبئ أبدا عن وجود لذلك الجيش الكثيف الذى يخبرون عنه الآن.

وثمة أمر ثالث، وهو أوضح من الأمرين السابقين، وهو استخدام السماع فى كشف المكان، فإن صهيل الخيل، وإيقاع حوافرها حين تضرب بالأرض، ورغاء الإبل، وأصوات ما معهم من الأنعام مما يذبحونه ليأكلوه فى سفرهم الطويل، لا بد من أن يكون واضحا لكل من أصغى سمعه لها، بل إنه فى ظل تلك الجبال المحيطة فإن سماع تلك الأصوات سيكون واضحا لا محالة بغير بذل جهد لسماعه.

ومع ذلك فإن استخدام حاسة السمع لا يشير أبدا لصحة هذا الخبر.

ومن جهة أخيرة فإن الأرض على أبواب مكة صلبة لا رخاوة فيها، وتلك الأرض الصلبة يسهل فيها نقل الاهتزازات الواقعة بها إلى ما حولها،

وخصوصا إذا جاءت فجأة وبكثرة، وهذه الاهتزازات كما سيشعر بها الناس، ستتشعر بها دوابهم، بل هى أكثر قدرة على استقبالها والشعور بها، وسيظهر أثر ذلك على سلوكها.

لكن الواقع يقول بأنه لم يرصد أحد شيئا من تلك الاهتزازات، مما يشير لعدم وجودها أصلا، وبالتالى لعدم بواعثها وأسبابها.

والنتيجة من ذلك كله أن خبر الحواس الواضح يخبر بأن هذا القول بعيد عن الصدق بعدا تاما واضحا.

سابعا: مما يبعد التصديق أيضا عن ذلك الخبر، هو أنه لا يعقل أن يحاول جيش –وبمقاييس ذلك العصر– الهجوم على أهل منطقة ما ثم تراه يقف فى أول النهار على أبوابها دون أن يبدأ الهجوم بغتة، وكأنه ينتظر وصول الخبر لمن حاول إخفاءه عنهم.

لقد استطاع هذا الجيش –إن صح هذا الخبر– أن يرتب كل أموره خفية عن الناس، فلم يشعر به أحد، سواء حين كان يتشاور أهله على ذلك الأمر، أو حين أجمعوا أمرهم، وتجمعوا بقواهم، وقطعوا الصحراء، حتى وصلوا لبغيتهم، والناس غافلون عنهم فى كل ذلك، فلما وصل إلى وجهته، واستطاع الوصول بخفائه، وقف على أبواب مكة إلى مطلع النهار دون أن يهاجم لتحقيق هدفه، فلماذا تجشم ذلك كله إذا.

إن كان وصل فى غير موعد هجومه المخطط له فلينتظر بعيدا عن أعين أهل مكة، متسلحا بخطته الناجحة بالتخفى ثم يبدأ هجومه كما خطط له، لكن أن يقف ويضيع على نفسه أنسب الأوقات للهجوم وهو عند انبلاج الصباح، وانتشار الرؤية لما أمامه، فذلك مما لا يصدق.

فإن العرب كان يحبون ذلك الوقت، لأنه يكون أسرع فى المفاجأة إذ لا يزال الناس فى نومهم، ثم إنه يعطى الفرصة للمهاجمين ليغتنموا طول النهار للوصول لأهدافهم قبل حلول الليل، وفوات الغنيمة.

ولقد ورد أن النبى ﷺ كان من وصيته لأسامة بن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن قال له: "سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحا على أُبنَى، وحرق عليهم، وأسرع المسير تسبق الخبر، فإن ظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم"(١).

ولذا فالسؤال هو أنه ما دام الجيش وصل أول النهار لبغيته، فلماذا لا يبادر إليها إذا، بدلا من انتشار الخبر، وفوات الهدف؟، إلا لو كان الأمر كله غير صحيح أصلا.

ثامنا: إن مما يعارض تصديق الخبر هو أن حدوث مثل ذلك التجمع ضد أهل مكة، حتى ولو استطاع أفراده التخفى فى كل مراحل تجهزهم ووصولهم، إلا أن أثرهم لا بد أن يظهر فيكشف أحوالهم.

ذلك لأن خروج ذلك الجمع سيمنع على الأقل وصول القاصدين من الناس من الوصول إلى مكة من تلك الجهات، حتى لا يخبر أحد عن تحركهم فيفسد عليهم مفاجأتهم.

ولا بد حينئذ أن يظهر فى الأيام السابقة لإنذار النبى ﷺ لهم ما يشير إلى أمر فيه ريبة، لقلة الوافدين من تلك الجهات، وسيثير عندئذ الشك فى نفوس أهل مكة تجاه السبب وراء هذا الإحجام، حتى ولو لم يخطر ببالهم أنه لأجل جيش يريد مباغتتهم.

وبالتالى سنجد الكلام يدور بين القوم عن هذه الظاهرة وأسبابها، ومنهم من يحاول استكشاف السبب، ومنهم من يحاول تخمينه.

عندئذ سيكون إنذار النبى ﷺ لهم كاشفا لهم عما أثار حيرتهم،

---

(١) ذكره ابن حجر فى شرحه المسمى بفتح البارى بشرح صحيح البخارى، ج٧، ص٨١٩، كتاب المغازى، باب بعث النبى × أسامة بن زيد ^ فى مرضه الذى مات فيه.

واستولى على فكرهم.

لكن الواقع الذى نستطيع اكتشافه من ردود الأفعال فى ذلك الموقف تبين أنه لا شىء غير طبيعى كانت تشهده مكة، ولا شىء أثار فى الناس أى ريبة فى الأيام السابقة، فكأن الإجابة جاءت على غير سؤال، وكأن الإنذار جاء على غير حال كان يرونها.

ووجود الإنذار الخالى من شواهده ومقدماته، والذى لا يسرى على توقع معقول يمكن انتظاره، مما يبعد معه التصديق، وبخاصة من العامة إذا رأوا كبراءهم لا يهتمون.

تاسعا: مما يرد التصديق أيضا بهذا الخبر هو ما كان واضحا من انتظار النبى ﷺ وقتا حتى صعد الصفا ونادى فى الناس، وانتظر تجمعهم ولو فى عجالة، ثم طرح الأمر فى صيغة سؤال، وليس فى صيغة تحذير.

والعقل يقول لو صح أن محمدا ﷺ علم بوجود هذا الجيش إما عيانا أو بشهادة صادق عنده لسارع بالتحذير من فوره، ولجعل الناس يتناقلون الإنذار واحدا عن واحد، وخصوصا أن تجميع الناس عند الكعبة بغير أهبة سلاح واستعداد مما يفوت كثيرا على أهل مكة القدرة على رد خصومهم، فلو كان الخبر صحيحا لحذرهم فى أماكنهم ليسارع كل فرد إلى اتخاذ عدته وخطته.

وبالتالى فالطريقة التى يعرض بها الأمر قد تكون عائقا عن التصديق، أو عن المسارعة للتصديق على الأقل.

عاشرا: من الأمور التى قد تمنع من التصديق أيضا المكان الذى اختاره النبى ﷺ لإنذار قومه.

فإنه قد يكون جبل الصفا مشرفا على نوادى قريش وأسواقهم، والتجمع

عنده أيسر من غيره، لكن ألا يعلم الناس –ومحمد أيضا– أنه لا تخلو الكعبة من زائر من غير أهل مكة، وألا يمكن أن يكون من بين أولئك الزائرين متلصصين لأجل ذلك الجيش، يستطلعون خبر القوم، ويكشفون عوراتهم، وذلك سيكون أقرب إلى القبول فى وسط هذه السرية المطلقة، فهل من الحكمة أن يعرف هؤلاء أن أهل مكة قد عرفوا بوصول جمعهم؟، وعندئذ فقد يغيرون خططهم، أو يبادرون قبل استعداد أهل مكة لهم.

فلماذا اختار محمد النداء عليهم فى هذا المكان الذى اختلط فيه الناس؟، وخصوصا أنه لم يبين فى أول كلامه ما يميز الخيل الوافدة بقبيلة أو جهة، ولماذا لم يتخير مكانا داخليا لا يختلط فيه أهل مكة بغيرهم ليبث إنذاره لهم؟، وهم جميعا يعلمون فطنة النبى وحصافته.

ألا يثير ذلك فى النفوس الريب فى التصديق، وينزع عن الخبر ثوب اليقين ليطرح فى دائرة الشك الذى لا يزيده البحث إلا ابتعادا عن التصديق، واقترابا من الرد والتكذيب.

حادى عشر: إن مما يمنع من المسارعة للتصديق بهذا الخبر هو التساؤل عن كيفية إمكان ذلك مع اليقين بأن الله لا بد أن يحمى بيته وحرمه.

وما خبر أبرهة ببعيد، فإن الجميع –سواء من قريش أو غيرهم– إما كان حاضرا ذلك الموقف أو ممن عاصر من شاهدوه، فلم يمر على موقف أبرهة أكثر من ثلاث وأربعين سنة، –إذ ولد الرسول عام الفيل، وبعث على رأس الأربعين، وأمر بالجهر بالدعوة بعد ثلاث سنين–، وقد استقر فى نفوس الجميع أن الحماية الإلهية لا بد آتية لهذا البيت من كل من يريد به مكرا وسوءا، فكيف يجترئ أحد على ذلك.

إن قريشا لما أدركت –وكذا جميع العرب– أنه لا قبل لهم بأبرهة وجنوده، تركوا مكة خالية من أهلها وصعدوا فى الجبال والشعاب يريدون النجاة.

بل إن عبد المطلب لما دخل على أبرهة حين اقترب بجيشه من مكة، سأله أبرهة عن حاجته، فقال: أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما تعجب أبرهة من طلبه وذكره بأنه جاء ليهدم الكعبة، قال عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه، فقال أبرهة: ما كان ليمتنع منى، قال: أنت وذاك.

وهذا الموقف لم يكن فيه عبد المطلب يريد بعيره، فإن الأمر أصعب من ذلك، ولكن كان عبد المطلب يريد أن يظهر ثقته فى الله ويخوف أبرهة بالله لعله يعود.

ومما يؤكد هذا المعنى ما روى من أن عبد المطلب لما رجع من لقاء أبرهة أخذ بحلقة باب الكعبة وهويقول:

لاهم إن العبد يمنع رحلـــــــــــــه فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتـــــــــــنا فأمر ما بدا لك[1].

وكانت النتيجة ما عرفته العرب وامتن به القرآن بعد ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ (الفيل ١-٥).

بل إن ابن هشام يقول: "وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته، فكانت تسمى الناسة، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال: إنها ما سميت ببكة إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا"[2].

---

(١) انظر السيرةالنبوية، ابن هشام، جـ ١، ص ٣٩-٤٠.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ٨٨.

أيمكن بعد كل هذا الذى حدث أن يجترئ أحد على مكة، ويجرب مع الله تعالى ليكون عبرة.

وإذا كانوا فى مواطن الإصلاح متذبذبين فى المساس بالكعبة، كما حدث حين هموا بهدم الكعبة لإعادة بنائها على أحسن ما تكون، فإنهم هابوا الإقدام على ذلك حتى أقدم على ذلك الوليد بن المغيرة وهو يقول: اللهم لم ترع،أو اللهم لم نزغ، فتربص الناس به تلك الليلة ينظرون ما يصيبه، فلما أصبح سالما علموا أن الله ارتضى صنيعهم، فأقدموا على إتمامه، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين(١).

أبعد كل ما سبق يمكن أن يصدق الناس أن جمعا يريد الخروج على أهل الحرم ظلما وعدوانا، إن هذا لشىء بعيد.

ثانى عشر: إن مما يمنع من التصديق أو على الأقل المسارعة إليه – خصوصا فى وسط هذا الجمع من الناس بكبرائهم وعوامهم– ما يكون من العلل النفسية التى لا يخلو مجتمع من وجود أفراد يحملونها بينهم.

فمنهم من يحمله الحقد على المتكلم ليظهر معارضته أو مخالفته.

ومنهم من يحمله الحسد –إذ كل ذى نعمة محسود– على أن يكابر فى الحق ويمتنع عن المتابعة لغيره، ولو على سبيل الانتقاص له.

ومنهم من تحمله الغيرة على عدم الإذعان لغيره.

ومنهم من يحمله الكبر الحاصل فى نفسه من أن يتبع غيره أو يسلم لكلامه لأول وهلة.

ومنهم من تحمله زعامته على عدم الرغبة فى الخضوع لقول غيره، أو تحمله زعامته على إظهار حصافته وحرصه على مصلحة قومه، فلا يسارع وراء كل زعم حتى يتيقن منه.

ومنهم من يحملهم حب الظهور فى مثل تلك المواقف العامة فيثيرون

(١) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٤٤.

الشبهة والاحتمال.

ومنهم أفراد يعرفون بأنهم دائما فى الطرف الآخر من كل قضية أو تجمع، فهم فى موقف المعارضة من كل اتفاق، وكأنهم يتخذون مبدأ يعرف عندنا "بالشريك المخالف".

ومنهم أفراد أذهانهم على قدر ضئيل من الفهم فتجدهم يتصدرون بغير فهم للمخالفة والمعاندة.

ومنهم كثيرون غيرهم، لا يخلو منهم أى مجتمع، وبخاصة إذا كان مجتمعا كبيرا عدده كمجتمع أهل مكة، فى موقف يشهده عامة الناس كهذا الموقف.

كل هؤلاء كفيلون بإثارة الريبة، وإظهار عدم التصديق فى هذا الموقف.

كل ما سبق كانت نقاطا تثير التوقف على الأقل فى تصديق النبى ﷺ حين يقول: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى؟"، إن لم يصل الأمر للرد والتكذيب.

وإن وجود واحد من تلك النقاط لكفيل بأن يرد على القائل قولته، ويطعن فى صدق مقالته، فكيف إذا اجتمعت كلها فى موطن واحد.

لا شك أن الأمر سيكون أكبر، والرد سيكون أعظم وأوضح.

لكن يزيد الأمر خطرا فى حصول عدم التصديق أن هذا الكلام يقدم إليهم بغير دليل يدعمه من غير قائله.

فقائله لم يسق معه شاهدا يسنده، أو دليلا عقليا أو حسيا أو حتى أسطوريا ليدعمه.

وهنا ظهرت الحقيقة الجلية فى هذا الموقف' إن هاهنا خبرا يحتمل لذاته الصدق والكذب، فهو ممكن يستوى طرفاه فى القبول والرد.

والإمكان وحده ليس دليلا لا على الصدق أو الكذب، فلننظر فى مرجح يرجح أحد الطرفين على الآخر، ولا يلزم من وجود المرجح عدم المعارض له، لكنه إذا كان أقوى مما عارضه رجح هذا الجانب يقينا.

فلننظر فى مرجحات الجانبين فى هذا الخبر.

أما ما يرجح جانب الرد والكذب فهو كل ما سبق وغيره مما لم أصل إليه فى هذا التحليل السريع.

فيرده منافاته لأحوال الزمن فى تجهيز الجيوش والخروج بها.

ويرده مخالفته لواقع الزمان فى سريان الأخبار وسرعة وصولها.

ويرده مصادمته لواقع الناس التى عرفت عنهم وعلاقتهم بالبيت الحرام.

ويرده عدم مواءمته لأى سبب يمكن أن يستند إليه.

ويرده عدم ملاءمة التحذير والتخويف فيه مع طبيعة الأرض التى تضمن لأصحابها النصر على أعدائهم.

ويرده ما يعاينه الناس بحواسهم مما لا يتوافق مع هذا الخبر.

ويرده مخالفته للمفترض وقوعه بحسب سياق هذه القصة.

ويرده مخالفته لكل ما تشهده مكة من حركة لا انتقاص فيها.

ويرده طريقة العرض المتئدة التى لا تناسب الحدث.

ويرده المكان الذى اختاره مما لا يناسب طبيعة الإنذار الواردة فيه.

ويرده ما عاينه الجميع من حماية الله للكعبة وأهلها زمان أبرهة.

كما ترده نفوس اختلفت عللها واتفقت على أن تظهر التكذيب والنفى.

أما ما يرجح جانب القبول والصدق فهو أن محمدا ﷺ أخبر به، وقال بأن هذا الكلام صدق.

فقط هذا هو مرجح الصدق، ولا شىء معه، ولا شىء غيره.

هنا نأتى للحظة الحقيقة.

إن القضية موضوعة بطرفيها وأدلة كل طرف أمام الكافة فما الذى سيختارون؟، هل يختارون القبول والتصديق، أم الرد والتكذيب، أم التوقف والتنقيب، أم سيختلفون بين ذلك كله؟، وما الذى سيكون أكثر عددا حينئذ؟.

ما الذى حدث من الحاضرين جميعهم، سواء كان الحاضر كبيرا أو صغيرا، ذكرا أو أنثى، سادة أو عبيدا؟.

الذى حدث أننا لم نجد واحدا من الحاضرين يقول: إن هذا الكلام عندنا فيه ريب وشك، فنحتاج إلى دليل.

ولم يقل أحدهم: ابعثوا أحدكم فوق تلك الجبال لينظر إن كان هذا الكلام صوابا أم خطئا.

ولم يقل أحدهم: إن الأدلة تشهد بخلاف ما تقول.

ولم يقل أحدهم: من أين لك بهذا الخبر؟، وكيف وصل إليك؟.

ولم يقل أحدهم: من الذى يشهد لك بما تقول؟.

ولم يقل أحدهم: من أولئك الذين تتهمهم بهذا التعدى لننظر إن كان يمكن تصور ذلك منهم أم لا؟.

ولم يقل أحدهم: إن كان كلامك صحيحا فكيف تبرر طريقة كلامك ومكان ندائك؟.

لم يقل أحد منهم شيئا من ذلك ولا من غيره.

إذا فما الذى قالوه؟.

لقد قالوها واحدة واضحة صريحة جماعية (قولا أو سكوت موافقة): نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، وما عرفنا عنك كذبا قط.

لقد قالوها حقيقة نحن سنصدقك، إن كلامك عندنا يرجح جانب الصدق أبدا.

إنك مصدق عندنا ولو خالف خبرك واقعنا، وقانون زماننا، فلعل علمنا به كان ناقصا.

إنك مصدق عندنا ولو خالف خبرك أعرافنا وتقاليدنا، فلعلها لم تعد مناسبة لحالنا.

إنك مصدق عندنا ولو خالف خبرك خبر حواسنا، فلعل خبرها كان غير صحيح.

إنك مصدق عندنا ولو خالف خبرك خبرا يأتى من غيرك، فلا يدانيك فى صدقك أحد.

إن كلامك يقين واضح وتلك كلها شبه زائلة -مهما تكاثرت- واليقين لا يزول بالشك أبدا، أو إن الدرجة العليا لا تزول بما هو دونها، وأنت فى كل هذا صاحب الجانب الأسمى.

بهذه الشهادة الواضحة كان إجماعهم إجماعا لا لبس فيه، واضحا أمام كل الحاضرين من قريش وغيرهم.

إن التصديق الواقع فى هذا الموقف لينبئ عن ثقة قلما تجد أحدا تمتع بها بين قومه، بل لن تجد أحدا وصل إليها إلا إن كان نبيا بين أتباعه.

لكنه لم يكن عرف بالنبوة بعد، وليس هو بزعيم القوم ليوافقوه طاعة، أو خضوعا، أو نفاقا، أو ثقة، أو عصبية.

إنه التصديق التام وكفى.

وإنها النتيجة الحتمية للرعاية والتربية الإلهية لصفيه ﷺ، تسرى وتظهر حتى قبل أن تعرف، وإذا ظهر السبب بطل العجب كما يقال.

وصدق ﷺ حين قال: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى"، وصدق الله حين يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم ٤).

إذا ظهر بما سبق حال القضية الأولى، ودرجتها، فلننظر فى حال القضية الثانية، لنرى هل ينطبق عليها قياس الأولى بالنسبة لحكم التصديق أم لا؟.

وهذا ما سيكون إن شاء الله فيما سيأتى.

المطلب الرابع

تحليل القضية الثانية

"إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"

إن هذه القضية الخبرية تحتمل لذاتها الصدق والكذب، وهنا فلا بد أن ننظر فى مرجحات أى من الطرفين لنعلم ما الجانب الذى يرجح وجوده، وبالتالى سنعلم بالقياس على حال القضية الأولى ما ينبغى أن يكون موقف القوم منه.

ومن تأمل فى هذا الخبر عرف أنه يحمل جانبين، قبول الجانب الثانى منهما متوقف على قبول الجانب الأول، ألا وهما: الأول: الاعتراف بالنبوة من الله للبشر، والثانى: الاعتراف باختياره تعالى لمحمد رسولا إليهم.

أما الجانب الأول فإنه يظهر بيسير بحث أن القوم لم يكن عندهم تردد فى إمكانه، ولا شبهة فى وقوعه.

فهم لم يكونوا فى مثل رأى الهندوس ومن وافقهم حين طعنوا فى أصل النبوة والرسالة، بالزعم ببعض شبه لم ولا تثبت أمام التمحيص الحقيقى، كقولهم لا حاجة للرسول فإرساله عبث، والعبث مستحيل فى حق الله تعالى، فالرسالة مستحيلة، أو يطعنوا فى خبر الرسول، أو تشريعه، أو دلالة المعجزات، أو غير ذلك مما يعرف بالرجوع إلى مظانه(١).

كلا لم تكن قريش ولا العرب عامة ينكرون إمكان الرسالة، بل كانوا موقنين بوقوعها حقا قبل ذلك، ومما يؤكد ذلك ما يلى:

---

(١) انظر فى شبههم والرد عليها مثلا القول السديد فى علم التوحيد، الشيخ محمود أبو دقيقة، تحقيق د/عوض الله حجازى، جـ ٢، ص ٦٦-٦٧، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، بدون بيانات.

أولا: أن قريشا لم تأمن فى حلها وترحالها، والعرب لم توفر هذا الأمان لهم، إلا لجوارهم البيت الحرام، الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما نبيان لا شك فى ذلك.

والحج والعمرة اللذان يحرص على أدائهما العرب هما من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ولقد كانت قريش والعرب ترى أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، وكانت تحدث مساجلات ومجادلات حول دين إبراهيم الحقيقى.

فهذا زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد الحنفاء فى الجاهلية كان يقول لقومه: "يا معشر قريش، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى"[(١)].

وكان ينشد ويقول:

عذت بما عاذ به إبراهم   مستقبل الكعبة وهو قائم

يقول أنفى لك عان راغم   مهما تجشمنى فإنى جاشم[(٢)].

ثانيا: أن العرب تعرفوا على اليهودية والنصرانية سواء ممن نزح إليهم من قبائل اليهود، أو فى تجارتهم للشام واليمن، أو بمن دخل النصرانية من قبائل وأفراد وخصوصا فى شمال الجزيرة و جنوبها.

وكان فى قريش من عرف النصرانية وقرأها ودخل فيها، كعثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وهو الذى لجأت إليه السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بالنبى صلى الله عليه وسلم، فقد كان ورقة "قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع

---

(١) انظر التفكير الفلسفى فى الإسلام، د/عبد الحليم محمود، ص ١٨، دار المعارف، ١٩٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥

من أهل التوراة والإنجيل"[١].

كما أن اليهود كان يقولون لغيرهم وبخاصة للأوس والخزرج بيثرب: "إن نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم"[٢].

كل ما سبق يدل على أن فكرة النبوة فى ذاتها لم تكن ممتنعة فى أذهان العرب، بل ولا كانت فكرة إرسال رسول الآن بممتنعة فى أذهاهم.

ثالثا: شاع بين قريش وغيرهم فكرة البحث عن الدين الصحيح لما رأى بعضهم من وضوح الضلال الذى عليه أقوامهم.

فهؤلا ء الحنفاء –وهم قوم رغبوا فى التماس دين إبراهيم عليه السلام– كان من شأن بعضهم أن اجتمعوا فقالوا: تعلمون والله ما قومكم على شىء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شىء[٣].

وبالتالى فإن هذا البحث والذى تعددت أسماء أفراده ليشير إلى أن فكرة النبوة لم تكن نابية عن أذهان العرب فى الجاهلية، ولا كانوا يتعجبون لو بعث الله فيهم نبيا.

رابعا: شاع بين بعض العرب فكرة انتظار نبى، أو التطلع إلى النبوة، فهذا أمية بن أبى الصلت والذى كما قيل آمن شعره وكفر قلبه، كان ممن يؤمل وقوع النبوة له[٤].

واليهود –كما ذكرنا– كانوا ينتظرون نبيا فى هذه المنطقة، بل إن بعض الروايات تقول بأن قبائل اليهود ما ارتحلت للجزيرة العربية إلا لما عرفوا أن

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، جـ ١، ص ١٧٨.

(٢) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٦٧.

(٣) راجع التفكير الفلسفى فى الإسلام، د/عبد الحليم محمود، ص ٢٢.

(٤) انظر المرجع السابق، ص ٢١، وكذا البداية والنهاية، ابن كثير، مجـ ١، جـ ٢، ص ٢٢٥ وما بعدها.

النبى القادم سيكون منها، فهاجروا إليها بغية أن يكون منهم.

خامسا: مما يؤكد على أن أمر النبوة لم يكن مستبعدا ولا غريبا عن أذهان العرب، أنهم لما حاربوا النبى ﷺ بعد ذلك فى دعوته بالسيف والشبهات، لم يتعرض واحد منهم لأصل النبوة إنكارا وجحودا، وإنما كانت شبههم متجهة إلى أمور أخرى لا تتعلق بأصل الرسالة.

كأن يتعللوا بفعل الآباء والأسلاف ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾ (البقرة ١٧٠)، أو بطلب نزول الرسالة على شخص آخر ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ (الزحرف ٣١)، أو يطلبوا نزول القرآن جملة واحدة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ (الفرقان ٣٢)، ومرة بطلب استبدال القرآن بغيره ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ (يونس ١٥)، وتارة أخرى يطعنون فى شخص النبى ﷺ نفسه، فيقولوا: ساحر، مجنون، كاهن، أتى بالأمر من نفسه، تعلمه من غيره، إلى آخر ما زعموا.

وفى كل ما سبق لا نلحظ مرة أحدا منهم أنكر قضية الرسالة عموما، أو طعن فى أصلها.

فظهر مما سبق أن الجانب الأول وهو جانب أصل النبوة والرسالة لم يكن عند قريش ولا غيرهم من العرب ما يعارضه، أو يطعن فيه.

أما الجانب الثانى وهو الاعتراف باختيار الله تعالى لمحمد بخصوصه رسولا إلى الناس، فهو يحتاج منا أن نفصله على شقين:

الأول: هل فى شخص محمد ما يتنافى مع هذا الاختيار.

الثانى: هل عند القوم ما يدل على صدقه ﷺ فى إخباره بهذا الاختيار.

أما الشق الأول فالواضح يقينا أن محمدا ﷺ ليس عليه مطعن يمنع الناس من تصديق وصول النبوة له، لا فى شكله، ولا فى خلقه، ولا فى سلوكه، ولا فى نسبه، ولا فى علاقته وتعامله مع غيره.

فهو من أوضأ قريش شكلا، ولا يعاب فيه شيء من خلقته، ولعل ما ورد من الأحاديث والروايات التى تدور حول وصفه ﷺ لتدل على ذلك سواء من أقوال أتباعه قبل إسلامهم أو بعده، أو من أقوال من لم يتبعه.

وما وصف أم معبد له ﷺ ببعيد، ولولا خوف الإطالة لحاجة ألفاظه للشرح والتبيين لنقلته كاملا[1].

أما أخلاقه ﷺ قبل البعثة، فهى فى أسمى الدرجات، وما رغبت خديجة رضي الله عنها فى تزوجه، وبعثت إليه من يحثه على خطبتها وتزوجها، إلا لما عرفت من جميل أخلاقه.

بل كان ﷺ معروفا بين قومه بالصادق الأمين، ولله در القائل:

لقبتموه أمين القوم فى صغر   وما الأمين على قول بمتهم[2]

ولعل وجود ودائع الناس عنده ﷺ بعد البعثة إلى وقت الهجرة مع ما يلقى منهم والمسلمين من صد وإيذاء لمما يدل على ذلك.

---

(١) انظر البداية والنهاية، ابن كثير/ مجـ ٢، جـ ٣، ص ٢٣٤.

(٢) من قصيدة نهج البردة، لأحمد شوقى، انظر الشوقيات، مجـ ١، جـ ١، ص ١٩٧، دار العودة – بيروت، ١٩٨٨.

واستقصاء ما يظهر هذا الجانب متشعب يطول، لكن إدراكه يسير واضح.

أما عن سلوكه ﷺ قبل بعثته، فلم يؤخذ عليه موقف واحد شارك فيه مجونا، أو كانت عليه فيه شائبة، ولا عاب واحد من الناس عليه أمرا، أو تدبيرا.

ومما يشير لما سبق ما قالته خديجة رضي الله عنها للنبى ﷺ أول البعثة لما قال لها:«أى خديجة، ما لي لقد خشيت على نفسى»، فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"(١).

أما نسبه ﷺ فيهم، فهو من أحسنهم نسبا، لا يمارى فى ذلك أحد، وشرف نسبه بين قومه خاصة وبين العرب عامة مما اتفق عليه الجميع، والشواهد على ذلك كثيرة.

ومما يدل على ما سبق ما رواه أبو سفيان عن نفسه فى الجاهلية حين قال: "أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش.

فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن

---

(١) رواه البحارى ومسلم واللفظ له فى كتاب الإيمان، باب بدء الوحى إلى رسول الله ×، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ٢، ص ٢٠٠-٢٠١.

كذبني فكذبوه.

فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل

لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه"(١).

وكذلك ما قاله جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه للنجاشى لما سأله عن دينه، فقال: "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله وحده لنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث زأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار"(٢) إلى آخر ما قال.

أما عن علاقته بالآخرين، فيكفى فى الدلالة على حسنها وقوتها –مع ما فى الموقف من دلالة على خلقه– موقف القوم منه فى اختلافهم حول وضع الحجر الأسود لما جددت قريش بناء الكعبة.

فإنهم لما رضوا بأن يحكم بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد، إلا أن فرحهم وارتياحهم بكون هذا الداخل هو محمد بن عبد الله تنبئ أن الأمر تعدى مجرد الأخلاق العالية إلى الألفة الواضحة.

فتأكدنا من كل ما سبق أنه ليس عند قريش ما يمكن أن يكون مانعا من تصديق أن محمدا هو رسول الله إليهم.

---

(١) رواه البخارى، كتاب بدء الوحى، حديث ٧، فتح البارى بشرح صحيح البخارى، جـ ١، ص ٢٩–٣٠،

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، جـ ١، ص ٢٥١.

أما الشق الثانى وهو هل عند القوم ما يدل على صدقه ﷺ فى إخباره بأنه رسول الله إليهم.

والجواب أن هذا هو غرض هذا الموقف الذى لأجله جمعهم رسول الله ﷺ، والذى يرجح الصدق فيه هو أنه خبره ﷺ.

وليس لأحد أن يقول إن هذا الموقف لايحتم التصديق بالخبر، لأنا نقول إن النبى ﷺ أظهر أدلة عديدة، وجاء بمعجزات واضحة، كما أن معرفة الناس الحقيقية بالشخص قد تكون عامل حسم فى دليل قد لا ينتفع به غيره، ومعرفة الناس به ﷺ قد تحسم من نفوسهم ترددهم، وتزيل حاجز الانقباض منهم تجاه دعوته.

لكن هل يمكن أن يكون عند قريش أو بعضهم ما يكون دافعا للتكذيب، وسببا لعدم التصديق؟.

أقول إننا حين تأملنا عقائد قريش وأخبارهم فيما سبق لم نجد عندهم ما يمنع من التصديق، ولا ما يؤدى إلى التكذيب.

ولو رجعنا لما ذكرناه من نقاط تميل بالمسألة إلى عدم التصديق فى الجملة الأولى فلن نجد فيها دافعا يمكن أن يكون هنا مانعا من التصديق إلا سببا واحدا لانعرف غيره، وهو المذكور آخر تلك النقاط، وهو وجود العلل والأدواء النفسية، كالحقد، والحسد، والغيرة، والزعامة، وحب الظهور، والرغبة فى المعارضة، وعدم القدرة على الوعى بما يناسب الحال، بالإضافة لغيرها من تلك الأمور النفسية، كالرغبة فى عدم الطاعة، وخشية استلاب المراتب والمغانم، إلى غير ذلك.

وهنا لا بد من التنبه إلى أن تلك العلل النفسية فى حد ذاتها ليست دليلا على الصدق أو الكذب، لكنها تخيل للمرء صحة جانب، فتدفعه للاعتقاد

بأنه على صواب، قال تعالى: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ (فاطر٨)، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ (الجاثية ٢٤).

فهذا فقط هو الذى يمكن أن يصد الناس ويميل بهم إلى التكذيب.

وهنا وصلنا إلى الملخص فى تحليل واقع هذه القضية الثانية "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، فنقول: ظهر مما سبق أن هذه القضية لذاتها ممكنة الصدق والكذب، ولا بد من مرجح ليرجح أحد الجانبين على الآخر ليمكن الحكم.

فوجدنا أن هذه القضية سائغة الوجود والتصديق عند قريش، لا يمنعون أصل النبوة، بل وينسبون أنفسهم وعقائدهم لأنبياء من عند الله تعالى، وليس عندهم ما يمنع من أن يرسل الله فى ذلك الزمان رسولا من عنده، سواء كان المانع عرفيا أو نفسيا أو اجتماعيا، بل إن بعضهم كان ينتظر نبيا ذلك الزمان خصوصا.

كما ظهر أن قريشا لا تجد فى محمد ﷺ ما يدفعها لإخراجه من دائرة الذين يمكن أن تنالهم الرسالة من أية جهة كانت، سواء فى نشأته وتربيته، أوخلقته، أوأخلاقه، أونسبه، أوسلوكه.

إذا فالقضية مبدئيا ستظل فى دائرة الإمكان على الأقل، ولن تميل للتكذيب حتى الآن أبدا.

لكن هل من دليل يشير إلى الصدق أو الكذب؟.

فى هذا الموقف بخصوصه فدليل الصدق يرجحه خبر محمد ﷺ

بذلك، وتأكيده على وقوعه.

وأما دليل الكذب فترجحه أهواء وعلل نفسية لا ترتبط بدليل أو مصلحة.

وهنا السؤال، فبناء على تلك الموازنة بين الطرفين (الصدق والكذب) ما الذى ينبغى على قريش أن تحكم به، وتميل إليه.

إنه لا بد من دليل يقوى أحد الطرفين بدليله على الآخر ليمكن المصير إليه، وإلا ستظل القضية فى دائرة الإمكان لا يمكن نفيها أو إثباتها، لأن الإمكان نفسه ليس بدليل على الصدق أو الكذب.

فهل من دليل؟.

هذا ما ستظهره الموازنة بين القضيتين فيما سيأتى.

المطلب الخامس

الموازنة فى الحكم بين القضيتين

الآن وقد انتهينا من تحليل الحديث عن القضيتين، وعرفنا ما فيهما من عوامل ودوافع تميل بكل منهما إلى جانب محدد من الصدق أو الكذب، نحتاج إلى الموازنة بينهما للوصول إلى حكم واضح فيهما.

إن الموقف الذى معنا فيه أن النبى ﷺ عرض قضيتين على الملأ من أهل قريش، وانتظر جوابهم عليه، لكنه لم يعرض القضيتين دفعة واحدة، وإنما عرض القضية الأولى أولا على الناس، فلما وصل معهم فيها لحكم، عرض القضية الثانية عليهم ليقول لهم إذا لن نختلف فى الحكم عليها أيضا ما دمنا اتفقنا على الحكم فى الأولى، لأن هذا من باب قياس الأولى كما قلنا سابقا.

بمعنى أنه ما دام الحكم على الأولى قد وقع بالتصديق فالأولى إذا أن يقع على الثانية بالتصديق.

وقلنا سابقا إن معنى ذلك أن تصديق القضية الأولى أصعب وأشق من تصديق القضية الثانية ليستقيم هذا الاستدلال.

والآن نقول ظهر مما سبق أن القضية الأولى "أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم"، هى قضية ممكنة الصدق والكذب لذاتها.

لكنها لا تحمل إمكان العادة واقعا.

وإذا نظرنا إلى أدلة عدم صدقها لوجدناها تحمل دلائل تميل بها إلى الكذب من أحوال ذلك الزمان، والمكان، والعرف، والأخبار السابقة، وشهادة الحواس، وتحليل طريقة القول ومكانه، إلى غير ذلك مما ذكرناه سابقا، ويضاف لها وجود العلل والأدواء النفسية.

وإذا نظرنا إلى أدلة صدقها لوجدنا أنه فقط خبر محمد بنفسه عن صدق

ذلك الأمر.

أما القضية الثانية "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، فهى قضية ممكنة الصدق والكذب لذاتها أيضا.

لكنها تحمل معها إمكان وقوعها عادة، بل وتزيد على ذلك أنها فى أساسها تلائم القوم ذلك الزمان، فى عقائدهم، وأعرافهم، وأديانهم، ومجتمعاتهم.

وهى فى نفس الوقت لا تجد شيئا يعارضها فى أصلها ليمنع حدوثها لمحمد ﷺ.

وبقى عندنا الحديث حول الحكم بصدقها أو بكذبها على كل ما فيها من أخبار ودلالات، وذلك مما سيحتاج إلى مرجح ليرجح جانبا على آخر.

فوجدنا أن ما يرجح التكذيب هو فقط العلل والأدواء والأهواء النفسية.

أما ما يرجح جانب الصدق فهو أنه فقط خبر محمد بنفسه عن صدق ذلك الأمر.

فبناء على ما سبق أى القضيتين يكون الحكم بالصديق فيها أشق وأصعب من الآخر؟.

إنه بلا جدال سيكون الحكم بالصدق على خبر القضية الأولى، وستكون هذا المشقة أعلى بمراتب ومراحل قد لا يستطيع العقل تصورها من الحكم بالصدق على القضية الثانية، فإن الحكم يميل فيها مبدئيا إلى الصدق بسهولة ويسر، فإذا انضاف إليه خبر النبى وشواهد كلامه وأفعاله، كان الحكم حقيقة بالصدق بغير مشقة أو عسر.

والنتيجة من ذلك أنه إذا حكم الناس بصدق القضية الأولى لأن خبر محمد ﷺ عندهم صادق لا تؤثر فى صدقه ما يواجهه من أمور تحمل الشبهة على الأقل فى كلامه، وتثير الغبرة لتحجب صحة بيانه،

فإن خبره ﷺ سيكون صادقا من باب أولى فى القضية الثانية التى تعلو بصفاء جوها وتظهر بنقاء وضوحها من غير شبهة أو نكير.

ولقد رأينا قريشا تسارع إلى تصديقه ﷺ فى خبره بالقضية الأولى "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم"، مسارعة تندهش لها العقول من شدتها، ووضوحها، وثباتها، وإجماع أهلها، كما وضحنا من قبل.

فلزمهم من باب أولى أن يصدقوه بنفس الدرجة أو أشد فى خبره بالقضية الثانية "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، واستحق أبو لهب التباب والخسران لما سب النبى ﷺ لأنه عاند وسب وصد عن سبيل نبى ثبتت لأبى لهب نبوته، واستبانت له حجته، ولزمته رسالته.

فظهر من كل ماسبق استقامة دليله ﷺ على قومه، وإتمام مهمته معهم فى أول بدئه بها، إذ ليس من مهمته الهداية، بل البلاغ وإقامة الحجة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧﴾ (الأحزاب ٤٥-٤٧).

فاللهم صل أفضل صلاة، وسلم أحسن سلام، على عبدك، ورسولك، ونبيك، ومصطفاك، محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

واشملنا بعفوك فى زمرته، واجمعنا بحلمك فى حضرته، وطهرنا بمحبته وآلنا ومن له حق علينا من أوزار الدنيا وأكدارها إلى رحابة المحبة، وحللها، ونعيمها، وأشواقها.

والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

فى هذا البحث حاولت الوقوف مع حجة رسول الله ﷺ على قومه لما أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة، وإعلان الرسالة للجميع.

ولقد كانت هناك حاجة ماسة لتحليل هذا الموقف –فى نظرى– لأن ظاهر الكلام لم يكن يشير للإنسان بوجه الحجة التى أقامها النبى ﷺعلى قريش حينذاك.

ولم يكن عند المرء شك فى أن الأمر صحيح لا محالة، فما كان للنبى ﷺ ليقول إلا حقا، وما كانت قريش ليخفى عليها حقيقة الحجة وفيهم من الفصاحة والبلاغة وإدراك غوامض البيان ما لا يخفى، لكن اختلاف الزمان، وعدم التنبه لخصائص المكان، وعدم الالتفات لجوانب الحياة وقت ذلك الحدث، قد تجعل الإنسان يقف حائرا دون معرفة الصواب.

ولقد ظهر من خلال تحليل قضايا الدليل كيف استقام هذا الدليل على قواعد الاستدلال الصحيحة، وبلغ مراده من إقامة الحجة على أهل مكة ذلك اليوم.

ولست أزعم أن كل هذه الجوانب التى أوضحتها فى التحليل كانت موجودة بتمامها وقت الكلام، لكن من اليقين أن من بين الحاضرين من كانوا من أصحاب العقل الراجح والذكاء الواضح الذين لن تخفى عليهم هذه الجوانب، وتسليمهم للنبى ﷺ فى صحة حجته دليل على غيرهم.

وإنى لأرجو من الناظرين فى مواقف السنة والسيرة المتعلقة بحياة رسول الله ﷺ أن يشملوا مواقفه ﷺ وأقواله وأفعاله بمزيد من الدرس والتحليل، لتعم لهم به فائدة العلم به ﷺ، وكمال حسن الاقتداء الذى هو من فوائد البعثة الإلهية للرسل عامة ولرسوله محمد ﷺ خاصة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ

كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب ٢١).

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فيما رغبت فيه من الوصول إلى فهم هذا الموقف على حقيقته، وأن يكون عملى فاتحة طريق أو على الأقل دافعا فى الطريق لمواصلة ذلك المنهج فى التعامل مع سيرة رسول الله ﷺ وسنته.

وأدعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يقبله منى بقبول حسن، وأن يجعله ذخرا لى ولأهلى يعود نفعه بركة وتوفيقا فى الدنيا، ونعمة ورضوانا فى الآخرة، وأن يجعلنا جميعا ممن يجمعهم بالنبى الأكرم ﷺ فى فراديس الجنة يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴿٨﴾﴾ (آل عمران ٨).

المراجع[1]

- **القرآن الكريم.**

- **البداية والنهاية**

ابن كثير، تحقيق د/أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- **البحر الزخار أو مسند البزار**

أبو بكر البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، من١٩٨١م إلى ٢٠٠٩م.

- **بهجة المحافل وبغية الأماثل فى تلخيص المعجزات والسير والشمائل**

يحيى العامرى، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون بيانات.

- **تفسير القرآن العظيم**

ابن كثير، المكتبة التوفيقية، بدون بيانات.

- **تفسير مقاتل بن سليمان**

مقاتل بن سليمان، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- **التفكير الفلسفى فى الإسلام**

د/عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٨٤.

- **جامع البيان فى تفسير القرآن**

الطبرى، تحقيق أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- **الجامع الصحيح للسنن والمسانيد**

صهيب عبد الجبار، بدون بيانات.

---

(١) مرتبة بعد القرآن الكريم ترتيبا هجائيا بدون اعتبار (ال).

- **دلائل النبوة**

أبو نعيم الأصبهانى، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **رد شبهات حول عصمة النبى ﷺ فى ضوء السنة الشريفة**

د/عماد السيد الشربينى، ضمن مجموعة المكتبة الشاملة.

- **سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد**

محمد بن يوسف الصالحى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنوات مختلفة.

- **السنن الكبرى**

أبو بكر البيهقى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- **السنن الكبرى**

النسائى، مؤسسة الرسالة، بيروت،الطبعة الأول، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- **السيرة النبوية**

عبد الملك ابن هشام، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- **شرح السنة**

أبو محمد الحسين البغوى، المكتب الإسلامى، دمشق -بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- **الشوقيات**

أحمد شوقى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

- **صحيح مسلم بشرح النووى**

النووى، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى**

ابن حجر العسقلانى، مكتبة الصفا، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- **القول السديد فى علم التوحيد**

الشيخ محمود أبو دقيقة، تحقيق وتعليق د/عوض الله جاد حجازى، مجمع البحوث الإسلامية، بدون بيانات.

- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**

أبو القاسم جار الله الزمخشرى، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	الملخص.	٧٩٣
٢	المقدمة.	٧٩٥
٣	المطلب الأول ذكر روايات الحديث.	٧٩٨
٤	المطلب الثانى بيان وجه الحاجة إلى تحليل الموقف.	٨٠١
٥	المطلب الثالث تحليل القضية الأولى.	٨١٤
٦	المطلب الرابع تحليل القضية الثانية.	٨٤١
٧	المطلب الخامس : الموازنة فى الحكم بين القضيتين.	٨٥٢
٨	الخاتمة.	٨٥٥
٩	المراجع.	٨٥٧
١٠	فهرس الموضوعات	٨٦٠